الفصل الرابع

الفتوحات في عهد معاوية ﷺ

نريد أن نسجل حركة الانسياح الإسلامي في الأرض، التي تمت في عهد بني أمية منذ عهد معاوية ﷺ، لندحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهد الخلفاء الراشدين، فحركة الفتح الإسلامي التي قامت في عهد الخلافة الراشدة وبني أمية ليست مجرد توسع في الأرض، ولا يجوز النظر إليها بهذا الاعتبار، إنما هي حركة أكبر حركة «هداية» للناس في التاريخ وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور.

وقد يبدو هذا الكلام في حس المثقفين لأول وهلة مجرد تشابه مع دعوى كل «دولة عظمى» أنها نشرت الحضارة في الأرض، وأن حركتها التوسعية كانت من أجل نشر تلك الحضارة، فلننظر إذن في تاريخ «الإمبراطوريات» في القديم والحديث: الإمبراطورية الفرعونية، والإمبراطورية الأشورية، الإمبراطورية الفينيقية، والرومانية، والفارسية، والهندية، والصينية، والبريطانية، والفرنسية، والأمريكية، والروسية، . . . إلى آخر تلك الإمبراطوريات الجاهلية التي يعج بها تاريخ الأرض، كيف قامت أولاً؟ وما نشرت في الأرض؟، فأما قيامها على التسلط بالقوة، وقهر الآخرين وإذلالهم، وإخضاعهم لسيطرة الدولة الأم، وتحويلهم خدماً لتلك الدولة الأم، يمدونهم بالرجال المقاتلين، ويمدونهم بمختلف الخيرات، لتتفش هي وتشبع وتتخم على حساب الجائعين المقهورين الأذلاء، فهذا أمر لا يحتمل المراء[1]. وأما الذي نشرته في الأرض فلا شك أنها نشرت بعض الخير، لكنها نشرت إلى جانبه كثيراً من الفساد، لأن حياتها هي ذاتها - وهي لا تهتدي بمنهج رباني - لا تشتمل إلا على بعض الخير والكثير من الفساد، وكل إناء يتضح بما فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وأما الحضارة الغربية اليوم، ففظائع الاستعمار الذي صاحب تلك الحضارة من احتلال أراضي الشعوب ونهب خيراتها وإذلال أهلها خير شاهد على فسادها، كما أن آخر إفرازات

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 118، 119.

هذه الحضارة الذي يسمى النظام العالمي الجديد، إن هو إلا نوع جديد من الطغيان تمارسه الدول القوية على الدول الضعيفة، ومن أبرز مآثره التخطيط للتحكم في الدول المتجة للبترول لحساب الدول الغربية القوية المتحكمة، وذلك باستنزاف هذا البترول في مدة أقصر، وطرحه في الأسواق بسعر أقل، لكي تزداد الدول الطاغية غنى ويزداد الفقراء فقراً وذلاً وضياعاً باسم «النظام العالمي الجديد». ومآثره كذلك إمداد إسرائيل بكل وسائل العدوان وحرمان الدول العربية من إمكانية صد العدوان.

وأما أصحاب الرسالات السماوية السابقة من اليهود والنصارى فماذا نشروا في الأرض؟ فأما اليهود فقد حولوا دينهم إلى عصبية خاصة ببني إسرائيل، لا يحبون نشره في الأرض لكي يبقى الإله خالصاً لهم لا يشاركهم فيه أحد من الناس. وأما النصارى فمنذ بولس وهم يسعون إلى نشر دينهم على نطاق واسع فأي شيء نشروه؟ لقد نشروا بادىء ذي بدء ديناً وثنياً بدلاً من الدين الرباني الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم، ديناً يعبد فيه عيسى وروح القدس جبريل عليه السلام مع الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 72]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: 73]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]. ونشروا ديناً يدعو إلى الرهبانية، وإهمال الحياة الدنيا واحتقار الجسد ودوافعه، فنشأ عنه تعطيل دفعة الحياة وإهمال عمارة الأرض، ثم نشأ عنه رد فعل أسوأ: انكباب على لذائذ الجسد وماديات الحياة[1]، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: 27]، ونشأ مع ذلك الدين نظام كهنوتي يتمثل في الكنيسة ورجالها، وعلى رأسهم البابا يمارس ألواناً من الطغيان البشع في جميع نواحي الحياة، ويعادي الفكر ويحجر على العقل، ويضطهد العلماء ويمنعهم من البحث العلمي التجريبي أو النظري، فتأخرت الحياة في كل جانب، ثم حدث رد فعلٍ أسوأ، تمثل في الإلحاد وإقامة الحياة على مبعدة من الدين، بل في عداء مع الدين.

وهكذا تحولت رسالة السماء على يد الكنيسة إلى غير ما نزلت من أجله، ونشرت الفساد بدلاً من الإصلاح، سواء في الفترة التي كانت تمارس سلطانها على الناس، أو في الفترة انقلب فيها الناس على سلطانهم ورفضوا الخضوع للدين[2].

وفي مقابل ذلك كان الانسياح الإسلامي في الأرض فريداً في التاريخ، شيئاً غير التوسع

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 119.
(2) المصدر نفسه، ص: 120.

«الإمبراطوري» الذي مارسته الجاهليات القديمة والحديثة، وغير الطغيان المفسد الذي مارسته النصرانية المحرفة وهي تتوسع في الأرض، في تلك الحركة الفريدة في التاريخ كان المسلمون ينشرون الهدى في مكان الضلال، والنور في مكان الظلام، والعبودية الصحيحة في مكان العبوديات الزائفة للحكام والكهنة والأوثان، ويحررون المستعبدين في الأرض، ويردون إليهم إنسانيتهم الضائعة، ويرفعونهم إلى المكان اللائق بالإنسان، وكانوا ينشرون قيماً من العدل والأخوة والتسامح والتكافل لا عهد للبشرية بها من قبل، ولا رأتها من بعد في غير الإسلام، وينشرون حضارة حقيقية شاملة شامخة، لا يستأثرون بها لأنفسهم، بل يفتحون أبوابها لكل مسلم في الأرض، بل يستظل بظلها النصارى في الأندلس وشرق أوربا، واليهود في مختلف بلاد العالم الإسلامي، والوثنيون عباد البقر في الهند، وكل من أراد أن يتعلم أو يمارس الحياة دون عدوان[1].

لم ينهب المسلمون خيرات البلاد المفتوحة، ولم يستذلوها ليتمتعوا بالسلطان، ولم يحافظوا عليها متأخرة متدنية ليبرروا استمرار سيادتهم عليها واستعلاءهم على أهلها... إنما دعوهم أولاً إلى الخير وهو الإسلام - فإن استجابوا فهم إخوة في الدين.. وإن أبوا طلبوا منهم جزية تدل على عدم مقاومتهم للخير المنزل من السماء أن يصل إلى قلوب الناس صافياً بلا غش، فإن أبوا هذا وذاك فعندئذ يقع القتال، لا لإكراه أحد على اعتناق الإسلام، ولكن لإزالة مراكز القوى التي تمنع الحق أن يصل إلى الناس على حقيقته.. فإذا أزيلت مراكز الطغيان، وزال تأثيرها على النفوس، ترك الناس أحراراً في ظل الإسلام، يعتنقون ما يشاءون[2].

إن حركة الفتح الإسلامي: دوافعها وخصائصها، وآثارها الواقعة لهي فصل أساسي في كتابة التاريخ الإسلامي، لا بد أن يعالج باستفاضة لدحض مزاعم المستشرقين ومن يتلمذ عليهم من بعض المؤرخين العرب وغيرهم.. وإن كنا نورده هنا من زاوية معينة: هي دلالتها على مدى عمق الوجود الإسلامي في نفوس الأمة التي تتحرك به، ولن تتحرك به أمة هذه الحركة الواسعة السريعة الفعالة المؤثرة وهي نفسها خاوية منه أو غير ممتلئة به حتى أعماقها[3].

وأول ما يسقط من دعاوى المغرضين في هذا الشأن - لفرط هشاشته - قول من قال: إن الدوافع الاقتصادية هي التي دفعت حركة الفتح الإسلامي!

إن الذي تحركه الدوافع الاقتصادية لا يخرج ليدعو الناس - أول ما يدعوهم - إلى

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 120.
(2) المصدر نفسه، ص: 121.
(3) المصدر نفسه، ص: 121.

الإسلام، فإن أسلموا ألقى سلاحه وعانقهم كما يعانق الأخ أخاه، وأخذ يعلمهم تعاليم الإسلام ليشاركوه في الخير الرباني الذي هداه الله إليه، فأصحاب هؤلاء الفرية يفترون الكذب على التاريخ[1].

وتسقط الدعاوى الأخرى تباعاً وتبقى حقيقة مهمة هي: أن هذه الحركة لا يمكن أن تأخذ صورتها التي أخذتها بالفعل، إلا أن تكون صادرة عن أمة ممتلئة بهذا الدين حتى أعماقها، حريصة عليه، مؤمنة به، راغبة فيه، راغبة في نشره في آفاق الأرض، فالقوة وحدها لا تفسر ما حدث في هذه الحركة من العجائب، فكم استخدمت القوى الطاغية في الأرض قوتها للتوسع في الأرض، فلم تصنع ما صنعته الحركة الإسلامية.

إن السيف، يمكن أن يفتح الأرض،ولكنه لا يفتح القلوب، والذي حدث في حركة الفتح الإسلامي لم يكن مجرد التوسع في الأرض، إنما كان فتح القلوب لتعتنق الإسلام، وكان - في كثير من الأقطار - اتخاذ لغة الدين لغة رسمية، ونسيان الشعوب المفتوحة ما كانت تستعمله من قبل من اللغات، حتى الذين بقوا على دينهم بغير إكراه، لو لم يكن الفاتحون مسلمين حقاً، بمعنى الإيمان بهذا، وممارسته في عالم الواقع والتمكن منه عقيدة وسلوكاً وحركة، ما حدثت هذه العجائب في الفتح الإسلامي..

وأمر آخر يتعلق بهذه القوة ذاتها: إنها في غالب الأحيان لم تكن هي الأكبر عدداً وعدة وخبرة حربية...، إنما كان العدد والعدة والخبرة في الجانب الآخر، جانب الذين انهزموا أمام قوة المسلمين، فلو لم يكن هناك عنصر آخر غير مادي - في جانب الفاتحين - ما تمكنوا من التغلب على أعدائهم الذين يفوقونهم في فنون الحرب، كما يفوقونهم في العدد والعدة سواء، ذلك العنصر هو العقيدة الحية التي تملأ القلوب، وهذه هي الدلالة التي نركز عليها هنا في وجه الدعاوى التي تقول: إن انحرافات بني أمية قضت على هذا الدين وهو بعد في المهد، وتلك نقطة ينبغي أن نقف عندها طويلاً حتى نقوّمها في نفوس الدارسين، ينبغي أن نلغي من حسهم ذلك الإيحاء الخبيث بأن الإسلام قد انتهى بعد الخلافة الراشدة ولم يعد له وجود، ويكون ذلك بعرض الواقع الإسلامي بأمانة كاملة ودقة كذلك..

وسيتبين لنا بالحساب - حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات - أن الحصيلة المتبقية ضخمة جداً رغم وجود الانحراف. ويكون هذا بالتالي فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الدين وضخامته، وأصالة جذوره في التربة وتعمقها، بحيث تبقى هذه الحصيلة الضخمة وتبقى تلك الحيوية، التي تسعى لنشر الدين في الأرض بكل الإصرار والتدفق

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 121.

والحماسة التي قام بها المسلمون في العهد الأموي بالذات[1].

وأما ما حدث من الهبوط عن مستوى الذروة فقد حدث ولا شك على درجات متفاوتة في بعض أفراد المجتمع، أو قل إن شئت: في كثير منهم، وهذا لا يعتبر في ذاته انحرافاً، إنما هو الأمر المتوقع بعد غياب شخص الرسول ﷺ عن ذلك المجتمع، وبعد زوال أثر النشأة الجديدة من نفوس الناس، فنحن الآن لسنا في العهد الذي شهد التحول العظيم من الجاهلية إلى الإسلام، إنما العصر الذي يليه، ولكن فلنذكر جيداً تزكية رسول الله ﷺ لذلك الجيل من الناس: «**خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[2].

فنحن إذن ما زلنا مع القرون المفضلة، وليس بعد شهادة رسول الله، ﷺ شهادة بشر[3]، صحيح أننا الآن مع المستوى العادي للإسلام، ولكن ذلك المستوى رفيع في ذاته، وإن لم يكن على مستوى الذروة التي وصل إليها الجيل الفريد، وأنه يحقق للناس من الخير حين يلتزمون به ما لا يحققه نظام آخر[4]، والحق أنه قد بقي في مجتمع بني أمية أفراد على المستوى الرائع، بل لم يخل جيل من أجيال المسلمين كلها - حتى في عصور الانحطاط - من نماذج متفرقة على ذلك المستوى الرفيع، إنما الملحوظة أن كثافة تلك النماذج في مجتمع الذروة كانت فذة بصورة غير عادية، ثم ظلت تخف تدريجياً مع مرور الزمان[5].

إن استئناف حركة الجهاد في عهد معاوية لم يكن بدعة على سياسته، فقد استمد كثيراً من الشهرة العريضة والمكانة العريضة من كفايته كوال على بلاد الشام، وهي جبهة واسعة من جبهات الجهاد، ومن شهرته كمجاهد موفق في البر والبحر منذ عهد أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، وكان له فتوحاته الكبرى في الساحل الشمالي للشام، كما أن له الفضل - بعد الله - في تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم في البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة في تاريخ المسلمين[6].

فالجهاد في سبيل الله أصل في حياة المسلمين في عهد الدولة الأموية، ولم تكن الغنائم هي الدافع للقيادة الإسلامية الرئيس نحو الفتح والجهاد، وإن وجد لدى بعض الأفراد، وهؤلاء لا يخلو منهم جيش حتى على عهد رسول الله ﷺ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 122.
(2) البخاري.
(3) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 123.
(4) المصدر نفسه، ص: 123.
(5) المصدر نفسه، ص: 123.
(6) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 239.

عمران: 152] وغيرها ولكن هذا بالطبع لا يمثل وجهة نظر المسلمين في فتوحاتهم، ولا يمثل القيادة الفكرية التي كان يتبناها الخليفة والقادة وينفذها الجند، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيها العام[1]، ومما يدل على ذلك مشاركة كبار الصحابة في ذلك الوقت فيها وحثهم المسلمين على الجهاد في سبيل الله، وحوادث الجهاد وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك: فجبهة الروم مثلاً - وهي التي كانت مثار الشجاعة ومرتع البطولة - ما كانت تدر الربح الكثير بل كان بيت المال يئن منها، لأن حملاتها ما كانت تنتهي إلى تقدم[2]، خاصة إذا ذكرنا الحملات الثلاثة الكبرى التي توجهت إلى القسطنطينية وتكلفت نفقات باهظة[3].

لقد أعطى المجاهدون المسلمون في العهد الأموي صوراً رائعة للتضحية والبطولة والتجرد وإخلاص النية لله في جهادهم، سواء كانوا من القادة أو الأمراء أو من عامة الجند، أو من جماعات العلماء والزاهدين والربانيين الذين فهموا عبادة الجهاد، ومارسوا ذلك على نحو مثير للإعجاب ودافع إلى التأسي، وقد توزعت صور الإخلاص والتضحية هذه على جميع جبهات القتال، وفي جميع مراحل الجهاد، مما يدل دلالة واضحة على عمق التوجه الإسلامي للفتوحات في العهد الأموي، وينفي الغبش الذي يثيره المنحرفون عن بني أمية على أنصع منجزاتهم وأحراها بالفخر والإعزاز، ومما لاشك فيه: إسلامية الفتوح في العهد الأموي[4]، وقد كانت الحصيلة النهائية والحصيلة التاريخية لحركة الفتوح لذلك العصر، امتداد عالم الإسلام إلى آفاق بعيدة، وكسب - عبر امتداده هذا - الأرض والإنسان، كما أنه حمى وعزّز في الوقت نفسه منجزات الموجة الأولى في حركة الفتح التي قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هي التي بدأت في عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكي تبلغ أقصى اتساعها في عهد الوليد[5].

المبحث الأول

حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية

كان معاوية ﷺ يرى أن الخطر الأكبر من وجهة نظره: الدولة البيزنطية، وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها في الشرق - الشام ومصر - إلا أن جسم الدولة لا زال سليماً لم يمس،

(1) الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين، ص: 78.
(2) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 346.
(3) المصدر نفسه.
(4) الدولة الأموية المفترى عليها.
(5) في التأصيل الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل ص: 92، 93.

فعاصمتها باقية، وممتلكاتها في آسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا لا زالت شاسعة وإمكانياتها كبيرة، وقدرتها على المقاومة هائلة، وهي لم تكف بعد عن مناوأة المسلمين، وباختصار فهي العدو الرئيس والخطر الأكبر الماثل أمام المسلمين.

وكان معاوية رجل المرحلة وقادراً على فهم وتقدير هذا الخطر، وعلى مواجهته، أيضاً، فقد كان موجوداً بالشام منذ مطلع الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق، وأصبح والياً عليها ولمدة عشرين سنة تقريباً، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيس مع الدولة البيزنطية، فطول إقامة معاوية رضي الله عنه بالشام، أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم، مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم، لكل ذلك فليس غريباً أن نرى معاوية يولي حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه ويرسم لنفسه نحوها سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمويين إلى نهاية دولتهم، وقد كان من أهدافه الرئيسة الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية[1].

أولاً: معاوية والقسطنطينية:

بعد أن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ خليفة للمسلمين، باشر في تطوير الأسطول البحري ليكون قادراً على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الروم ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين، فبعد أن قضى معاوية على حركات المردة أو الجراجمة الذين استخدمهم الروم وسيلة لرصد حركات الدولة الإسلامية ونقاط ضعفها وإبلاغ الروم عنها متخذين من مرتفعات طوروس وجبل اللكام مقراً لهم[2]، بدأ الخليفة نشاطه البحري بإرسال حملات بحرية استطلاعية منها: حملة فضالة بن عبيد الأنصاري[3]، للوقوف على تحركات الروم وجلب المعلومات الدقيقة عنهم لمنعهم من استخدام جزر قبرص، وأرواد[4]، ورودس ذوات الخدمة التعبوية والعسكرية في عملياتهم ضد الأسطول الإسلامي، وقد باشر أعماله الاستطلاعية بإحدى الشواتي، وهي شاتية بسر بن أبي أرطأة في البحر عام 43هـ[5] وأعقبها بشاتية مالك بن عبد الله بأرض الروم سنة 46هـ، وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري بحراً، وحملة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر في البحر سنة 48هـ، وصائفة عبد الله بن كرز البجلي،

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 241.
(2) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 51.
(3) المصدر نفسه، ص: 51، نقلاً عن: الأمويين والبيزنطيين.
(4) أرواد: جزيرة قرب القسطنطينية، ياقوت الحموي، معجم البلدان (1/ 207).
(5) مواقف حاسمة، ص: 31، محمد عبد الله عنان.

وحملة عبد الله بن يزيد بن شجر الرهاوي، وشاتيته بأهل الشام في سنة 49هـ[1].

وكان نظام الشواتي والصوائف مستمراً. فقد وضع معاوية أمامه هدفاً واضحاً وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيداً للاستيلاء عليها، ولعل معاوية ﷺ كان يرمي إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاتها بالاستيلاء على عاصمتها، فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هي مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال، وفيها العقول المفكرة، فإذا سقطت في يده فإن هذا سيؤدي إلى شلل كامل في الدولة كلها، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس، فبعد سقوط المدائن عاصمتهم في أيديهم أصابهم الارتباك ولاحقهم الفشل، ولم تقم لهم قائمة وزالت دولتهم، فإذا استطاع إسقاط عاصمة البيزنطيين فسيكون ذلك نذيراً بإسقاط الدولة، ويستريح من خصم عنيد وعدو رئيس، لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه.

وليس من المبالغة القول إن الدولة البيزنطية ظلت على قيد الحياة مدة تقرب من ثمانية قرون، وهي مدينة ببقائها لعاصمتها القسطنطينية، فمناعة المدينة وصمودها أمام محاولات الأمويين المستمرة لفتحها، حال دون ذلك، وبالتالي حال دون سقوط الدولة، والدليل على هذا أنه عندما استطاع السلطان العثماني محمد الفاتح فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها في سنة 857هـ التاسع والعشرين من مايو سنة 1453م كان إيذاناً بسقوط الدولة البيزنطية وزوالها من الوجود[2].

ثانياً: التخطيط الإستراتيجي عند معاوية للاستيلاء على القسطنطينية:

حرص معاوية ﷺ أن يكون زمام المبادرة دائماً في يده، لأنها هي التي تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد، وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل مصر والشام، وقد سار في تحقيق هذا الهدف في عدة اتجاهات:

1 - الاهتمام بدور صناعة السفن في مصر والشام:

واختيار أمهر الصناع للعمل فيها والإغداق عليهم بالأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم بالعمل[3]، فقد أدرك معاوية ﷺ بحسه العسكري وفكره العبقري، أن معارك المسلمين مع الروم، ستعتمد أساساً على الأسطول البحري، وزاد هذا الإحساس عمقاً في قلب معاوية ونفسه تكتل الروم وإعدادهم أكثر من خمسمائة سفينة في معركة ذات الصواري

(1) النجوم الزاهرة (1/ 134) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 51.
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 244.
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 245.

لقهر الأسطول الإسلامي، ومع أن الروم باءوا بفشل ذريع في هذه المعركة، إلا أنهم لم يكفوا عن الإعداد، ولم ينتهوا عن تجميع قواتهم لمواجهة قوة المسلمين في البحر، لقد كانوا يظنون أن قوة المسلمين البحرية يمكن القضاء عليها، لأنها لا زالت في دور التكوين، ولكنهم فوجئوا بهزيمتهم المنكرة في ذات الصواري، فتوقعوا بعد ذلك أن تكون المعركة القادمة على أسوار العاصمة القسطنطينية فراحوا يستعدون لذلك[1].

وقد أدى التعاون بين مصر والشام في صناعات السفن إلى الوصول إلى نتائج ممتازة، ففي الشام كانت تتوفر أخشاب الصنوبر القوي والبلوط والعرعر التي تصلح لبناء السفن، وفي مصر كانت توجد الأخشاب التي تصلح لعمل الصواري، وضلوع جوانب السفن، وخشب الجميز واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاديف[2]، وكذلك استغل معاوية معدن الحديد الذي كان متوافراً في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس، كما كان يتوافر في مصر مادة القطران اللازمة لقلفطة السفن، ونبات الدقس الذي كانت تصنع منه الحبال، وباختصار فقد أدى التعاون المصري الشامي إلى ازدهار البحرية الإسلامية التي ازدادت أهميتها بعد أن أمر معاوية عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة عام 54هـ[3]. وذلك على أثر غارة شنها البيزنطيون على مصر[4].

2 - تقوية الثغور البحرية في مصر والشام:

فقد آثر معاوية رضي الله عنه أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المجاهدة، بما يجعلها قواعد تنقل منها الجنود بحراً إلى أي مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظاماً عرف بالرباط، وهو ما يقصد به: الأماكن التي تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو، واعتني بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط بالجهاد، إذ اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين على إعزاز الإسلام ونصرته[5]، وتدرج معاوية رضي الله عنه في تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه في كل أعماله التي اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع، فأعد الربط لتكون حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل البيزنطية، ولتكون ملجأ يحتمي بها الأهالي في المناطق الساحلية بأن

(1) الأمويون، محمد سيد الوكيل (1/ 154).
(2) تاريخ الدولة العربية، ص: 312.
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 246.
(4) كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص: 38.
(5) الأمويون والبيزنطيون، ص: 68.

يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية في المياه الإقليمية، فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم، ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرج للمراقبة، ثم لم يلبث أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات[1].

وتعتبر سياسة منح الإقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة في سلم السياسة البحرية الدفاعية التي رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر في عهد عثمان، إذ أتم بفضل هذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التي أخذ ينشىء فيها أساطيله، وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالي بعلبك وحمص وأنطاكية عام 42هـ إلى صور وعكا وغيرهما من المدن بسواحل الأردن، كذلك أصلح معاوية ﷺ حصون هاتين المدينتين ولاسيما عكا التي خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص، وبسط معاوية ﷺ اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية[2].

3 - الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط:

وقد بدأ معاوية ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرص - كما سبق ذكره - ثم استولى على جزيرة أخرى هامة، وهي: رودس وأمر ببناء حصن بها وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولّون الدفاع عنها، وجعلها رباطاً يدفعون منه عن الشام، وآثر معاوية أن يحيط المسلمين في رودس بالجو الإسلامي الديني، ويعلي راية الإسلام بين أهاليها، فأرسل إليها فقيهاً يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن[3].

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجه وسد منافذه الرئيسة في وجه السفن البيزنطية، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين، وعمل على تحقيق ذلك في الاستيلاء على جزيرة «كريت» إذ تسيطر هذه الجزيرة تماماً على بحر إيجه، الذي يشبه طرفه الجنوبي فوهة قربة تمتد جزيرة «كريت» عبرها، بامتدادها البالغ 160 ميلاً، وتقسم الجزيرة هذه فتحة إلى مدخلين يتحكم في كل منهما، وأرسل معاوية جنده الذي استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة، ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام، على أن جنادة بن أمية الأزدي لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها.

وهكذا وجه معاوية ﷺ أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط، وأوقفهم على أهمية جزره، فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها، وطرق باب غيرها، ومهد

(1) الأمويون والبيزنطيون، ص: 69.
(2) المصدر نفسه، ص: 70.
(3) المصدر نفسه، ص: 81.

الطريق لمن يأتي بعده من الخلفاء الأمويين، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين أنفسهم في سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل في تاريخها، وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها، ولكن تريث معاوية في تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحري على البيزنطية[1].

4 - تحصين أطراف الشام الشمالية:

كان من الضروري لكي تؤتي هذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية، التي تشكل مناطق الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، ضد غارات البيزنطيين من ناحية، ولتكون سنداً للقوات الزاحفة على القسطنطينية من ناحية ثانية، ذلك لأن المسلمين في فتوحاتهم الأولى في عهد الخلفاء الراشدين، وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية، ثم وقفت أمامهم سلسلة جبال طوروس تحول دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية، وكان البيزنطيون عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المسلمين قد قاموا بتخريب المناطق الواقعة شمال حلب وإنطاكية لئلا يستفيد منها المسلمون، كما خربوا معظم الحصون فيما بين الأسكندرونة وطورسوس[2].

فرأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها، فاهتم أولاً بمدينة أنطاكية التي كانت معرضة دائماً للإغارات البيزنطية المفاجئة، واتبع في تعميرها السياسة التي سار عليها إزاء المدن الساحلية للشام، وأغرى الناس على الإقامة بأنطاكية، بأن منحهم إقطاعات من الأرض، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم، وأخذ معاوية يوالي تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الأسكندرونة وطرسوس أثناء غاراته على أراضي البيزنطيين، حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس - الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى - ولإحكام سيطرته على المعاقل الهامة الواقعة في مناطق التخوم الإسلامية البيزنطية، استولى على سميساط وملطية، كما جدد حصوناً أخرى مثل مرعش والحدث، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطي الهام وأعاد تحصينه[3]، ولكي تكون الحركة مستمرة وتكون مناطق الحدود ميداناً عملياً لتدريب جند المسلمين، وتعويدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة، دأب معاوية على الغزو المستمر، وأصبح هذا النشاط العسكري يعرف بغزوات الصوائف والشواتي[4]، فلا تكاد تمر سنة وإلا ونجد ذكراً عند الطبري وغيره لغزو في البر أو

(1) الأمويون والبيزنطيون، ص: 82.
(2) فتوح البلدان، البلاذري، ص: 194 العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 247.
(3) الأمويون والبيزنطيون، ص: 110، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 247.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 248.

البحر، كأن يقول: وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم[1].

وكانت هذه الغزوات تنطلق إلى بلاد الأعداء وتخرب تحصيناتهم وتغنم وتعود، وكان تكرار هذه الغزوات يشكل ضغطاً على الدولة البيزنطية ويرهق أعصابها وينهك قواها[2]، وقد برز في هذه الحملات المستمرة عدد من كبار القادة المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم في ميدانها وأتقنوا فن الحرب، ، مثل عبد الله بن كرز البجلي، ويزيد بن شجرة الرهاوي، ومالك بن هبيرة السكوني، وجنادة بن أمية الأزدي، وسفيان بن عوف، وفضالة بن عبيد[3]، ومالك بن عبد الله الخثعمي، الذين أطلقوا عليه مالك الصوائف لعلو كعبه في الميدان الحربي في آسيا الصغرى[4]، وهؤلاء القادة أبلوا بلاءً حسناً في الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة الله[5].

ثالثاً: الحصار الأول للقسطنطينية:

بعث معاوية ﷺ سنتي 47 - 48هـ سرايا من قواته لتغيرعلى الأراضي البيزنطية لتمهد الطريق في سبيل الوصول إلى القسطنطينية، فتمكن مالك بن هبيرة السكوني من قضاء الشتاء في الأراضي البيزنطية[6].

ولقد شهدت سنة 49هـ/ 669م أول حصار إسلامي لمدينة القسطنطينية، ذلك أن نجاح قوات المسلمين في توغلهم في الأراضي البيزنطية بالإضافة إلى الصراعات الداخلية التي واجهها الإمبراطور قُسطانز الثاني نتيجة تمرد اثنين من قادته هما سيليوس وميزيريوس[7]، كل ذلك ساعد معاوية ﷺ على أن يبعث قواته في البر والبحر بقيادة كل من فضالة بن عبيد الليثي وسفيان بن عوف العامري، يساعدهم يزيد بن شجرة الرهاوي، تجاه القسطنطينية[8]، ووصل الأسطول الإسلامي إلى خلقيدونية - ضاحية من ضواحي القسطنطينية على البر الآسيوي - وحاصرها توطئة لاقتحامها في محاولة لاختراق المدينة من تلك الناحية، ولكن انتشار مرض الجدري وفتكه بكثير من جند المسلمين، إضافة إلى حلول الشتاء القارس جعل ظروف الجيش المحاصر صعبة للغاية، فما كان من فضالة بن عبيد الليثي، قائد الجيش البري إلا أن استنجد

(1) تاريخ الطبري (6/ 225).
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 248.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 248.
(4) الأمويون والبيزنطيون، نقلاً عن العالم الإسلامي، ص: 248.
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 248.
(6) تاريخ الطبري (6/ 145) خلافة معاوية، للعقيلي، ص: 108.
(7) يشير إبراهيم العدوي إلى أن الإمبراطور قتل وجيء بابنه قسطنطين الرابع.
(8) تاريخ الطبري (6/ 148).

بمعاوية طالباً منه أن يمده بقوات إضافية، فأرسل معاوية ﷺ مدداً من الجيش يضم بين أفراده مجموعة من الصحابة، أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو أيوب خالد بن يزيد الأنصاري ﷺ [1]، وكان القائد العام لهذه الفرقة هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

وعندما وصل يزيد بقواته إلى خلقيدونية انضم إلى الجيش المرابط هناك، وزحفوا جميعهم نحو القسطنطينية وعسكروا خلف أسوارها ضاربين عليها الحصار حوالي ستة أشهر «من الربيع إلى الصيف» وكان يتخلل هذا الحصار اشتباكات بين قوات القوتين، وأبلى يزيد في هذا الحصار بلاءً حسناً وأظهر من ضروب الشجاعة والنخوة والإقدام ما حمل المؤرخين على أن يلقبوه بـ«فتى العرب»[2].

وكادت القوات الإسلامية أن تحرز انتصاراً لولا أنهم واجهوا صعوبات جمة منها: الشتاء الغزير المطر، والبرد القارس، مما أدى إلى نقص الطعام والأغذية، وتفشي الأمراض بينهم، كما كان لمناعة أسوار القسطنطينية أثرها في تراجع المسلمين وإجبارهم مرة أخرى على العودة إلى بلاد الشام[3]، كما كانت النار التي فتحها المتحصنون بها على جيش المسلمين من أهم الأسباب التي عوقت قدرتهم على فتحها، فقد أحرقت النار كثيراً من سقى المسلمين[4].

ويعد غزو القسطنطينية من دلائل النبوة حيث أخبر به نبينا محمد ﷺ حيث قال: «... **أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**»[5]، وقد اشترك في غزو القسطنطينية عدد من كبراء الصحابة رضوان الله عليهم، طلباً للمغفرة التي بشر بها رسول الله ﷺ [6].

رابعاً: وفاة أبي أيوب الأنصاري في حصار القسطنطينية:

هو خالد بن زيد بن كليب، أبو أيوب الأنصاري الخزرجي، شهد بدراً والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع علي ﷺ قتال الخوارج، وفي داره كان نزول رسول الله ﷺ حين قدم المدينة مهاجراً من مكة، فأقام عنده شهراً حتى بنى المسجد ومساكنه حوله، ثم تحوَّل إليها[7].

(1) تاريخ الطبري (6/ 148).
(2) الأمويون والبيزنطيون، ص: 164، خلافة معاوية، ص: 109.
(3) الكامل في التاريخ (6/ 480)، خلافة معاوية، للعقيلي، ص: 110.
(4) الأمويون، محمد سيد الوكيل (1/ 59).
(5) البخاري، صحيح البخاري مع فتح الباري (6/ 120).
(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 320.
(7) البداية والنهاية (11/ 251).

وقد وفد أبو أيوب على عبد الله بن عباس لما كان والياً على البصرة في عهد علي، فبالغ في إكرامه، وقال: لأجزينَّك على إنزالك النبي ﷺ عندك، فوصله بكل ما في المنزل فبلغ ذلك أربعين ألفاً[1]، وجاء في رواية: لما أراد الانصراف خرج له عن كل شيء بها، وزاده تحفاً وخدماً كثيراً وأعطاه أربعين ألفاً وأربعين عبداً، إكراماً له لما كان أنزل رسول الله ﷺ في داره، وقد كان من أكبر الشرف له[2].

وهو القائل لزوجته أم أيوب حين قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ - أي في حديث الإفك - فقال لها: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله. فقال: والله لهي خير منك، فأنزل الله[3]: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: 12].

وقد آخى رسول الله ﷺ بين أبي أيوب ومصعب بن عمير[4] رضي الله عنهما صاحب الفتح السلمي الكبير بالمدينة المنورة.

وكانت وفاته ببلاد الروم قريباً من سور قسطنطينية، وكان في جيش يزيد بن معاوية وإليه أوصى وهو الذي صلى عليه[5]. وقد جاء في رواية: أغزى أبو أيوب، فمرض، فقال: إذا متُّ فاحملوني، فإذا صافقتم العدوَّ، فارموني تحت أقدامكم. أما إني سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**»[6]، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية، وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب! قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نُبش، لاضُرِبَ بناقوس في بلاد العرب[7].

وبعد مجيء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانة أبي أيوب الأنصاري عظيمة في الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينياً في مسجد أبي أيوب، حيث يتقلدون سيفاً للرمز إلى السلطة التي أفضت إليهم، وكان لأبي أيوب رضي الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولي الله الذي تهوي إليه القلوب المؤمنة، وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله، فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة، كما أنه له

(1) سير أعلام النبلاء (2/ 404).
(2) البداية والنهاية (11/ 252).
(3) سيرة ابن هشام (2/ 302)، البداية والنهاية (11/ 252).
(4) سير أعلام النبلاء (2/ 405).
(5) البداية والنهاية (11/ 252).
(6) سير أعلام النبلاء (2/ 412) إسناده قوي.
(7) المصدر نفسه (2/ 412).

مكانة مرموقة بين المجاهدين، واعتبروا ضيافته لرسول الله ﷺ وجهاده في سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره[1].

وقد ترك أبو أيوب رضي الله عنه في وصيته بأن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل في أرض العدو حياً وميتاً، وكأنما لم يكفه ما حقق في حياته فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق[2].

ومن الغريب ما نراه في حياتنا من حرص بعض المسلمين إذا مات خارج بلده أن يوصي أهله بإرجاعه ودفنه في أرضه، والأرض الأرض الله والبلاد بلاد الله. وقد مدحه شعراء الأتراك في أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندي يشير إشارة لامحة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهداً ومجاهداً ومكابداً بحروبه ما كابدا
حتى أتى بصلابة ومهابة في آخر الغزوات هذا المشهدا
قد مات مبطوناً غريباً غازيا فغدا شهيداً قبل أن يستشهدا

كان أبو أيوب رضي الله عنه عندما خرج في غزوة القسطنطينية قد تقدمت به السن وأصبح شيخاً كبيراً وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41] لا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً[3]، وكان أبو أيوب رضي الله عنه يعلم الناس الفهم الصحيح لآيات الله ومفاهيم الإسلام، فعن أبي عمران التجيبي قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - يعني الجماعة الذين غزوا من المدينة - والروم ملصقو ظهورهم بحائط القسطنطينية، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه، مه، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] فالإلقاء بالأبدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية[4]. فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وإن الهلاك الحقيقي هو هلاك الآخرة بسبب التهاون في واجبات الإسلام[5].

(1) الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، حسين المصري، ص: 12.
(2) المصدر نفسه، ص: 68.
(3) سكب العبرات للموت والقبر والكرات (1/ 175).
(4) سنن أبي داود رقم (2512)، سنن الترمذي رقم (2972).
(5) التاريخ الإسلامي (13/ 15).

خامساً: الحصار الثاني للقسطنطينية:

استطاع معاوية ﷺ أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة والاستيلاء على جزر رودس وأرواد اللتين سبقت الإشارة إليهما، وقد كان لجزيرة أرواد - والتي تسميها المصادر الأوربية كزيكوس - أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامي في حصاره الثاني للمدينة أو حرب السنين السبع (54 - 60هـ) قاعدة لعملياته الحربية، وذلك أن معاوية أعد أسطولاً ضخماً، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية، وظل مرابطاً أمام أسوارها من سنة 54هـ إلى سنة 60هـ[1]، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار، واستمر الحصار البري والبحري للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر، تتخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين من الصباح إلى المساء، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطي المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام، استمر هذا الوضع طيلة سبع سنوات[2]، حتى أرهقت البيزنطيين، وأذاقتهم ألوان الضنك والخوف، وأنزلت بهم خسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك لم تستطع اقتحام المدينة أو التغلب على حراسها المدافعين عن أسوارها[3].

وكانت العوامل التي ساعدت القسطنطينية على الصمود عديدة منها:

1 - استعمال البيزنطيين في هذه المعارك ناراً سموها النار البحرية أو النار الأغريقية، وهي عبارة عن مركب كيميائي مكون من النفط والكبريت، القار، وكان هذا المركب يشعل بالنار وتقذف به المراكب فيشعل فيه النار، والعجيب أنه كان يزداد اشتعالاً إذا لامس الماء، ومخترع هذا المركب الكيميائي الفتاك، الذي فتك بالعديد من سفن المسلمين وجنودهم هو مهندس سوري الأصل اسمه كالينكوس، كان في أوائل الأمر في خدمة المسلمين، ثم هرب إلى القسطنطينية، ووضع خبرته في خدمة البيزنطيين[4].

وكان هذا السلاح الجديد من أهم العوامل التي ساعدت البيزنطيين على الصمود والاستمرار في الدفاع عن العاصمة، وظل هذا السلاح سراً خفياً، لا يعرفه إلا المتخصصون في صناعته، وكان الأباطرة يمدون حلفاءهم بهذا السلاح دون أن يطلعوهم على سره، ومرت

(1) تاريخ الطبري (6/ 210 إلى 240).
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 351، 252.
(3) الأمويون والبيزنطيون، ص: 176، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 252.
(4) الأمويون والبيزنطيون، ص: 176، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 252.

أربعة قرون، وهو سلاح غامض لم يعرف كنهه سوى مخترعه، وفي القرن العاشر المسيحي، الرابع الهجري، عرف الباحثون سر هذه النار، وبينوا العناصر التي تكونت منها، والوسائل التي يمكن إخمادها بها، وتطور هذا السلاح حتى كان منه ما يشبه المفرقعات، وكانت تلقى على الأعداء بواسطة المجانيق، أو أنابيب نحاسية تقذف من السفن، وكان لها صوت مدو يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف، وشغل هذا الاختراع عقول العلماء المسلمين، فراحوا يبحثون ويفكرون، حتى عرفوا سره في مطلع القرن الحادي عشر المسيحي، الخامس الهجري، وأدخلوا عليه تعديلات جعلته أشد فتكاً، وأقوى أثراً من النار الإغريقية، واستخدم المسلمون هذا السلاح الفتاك في حروبهم مع الصليبيين بأرض الشام، وكان وقعه شديداً على الصليبيين، ونشر فيهم الرعب والفزع، ومن ذلك الحين عرفت هذه النار «بالنار الإسلامية»[1].

يقول الدكتور إبراهيم العدوي: لأن الأعداء عجزوا عن معرفة هذا السلاح الجديد الذي احتضنه المسلمون، وظل استخدام النار الإسلامية سائد حتى القرن الرابع عشر المسيحي، الثامن الهجري حيث دخلت عليها تطورات وتعديلات كثيرة، أدت أخيراً إلى صناعة البارود. ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير في أساليب الحرب التي عرفها العالم الحديث، وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفي الأيدي أمام أي سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم[2]. ونسأل الله تعالى أن يوفق المسلمين لإيجاد حل للتفوق العسكري الأمريكي والغربي عليهم.

2 - **السلسلة الحديدية الضخمة**، الحاجزة ما بين القرن الذهبي ميناء القسطنطينية وبين الشاطئ الآسيوي، حيث كان يتم إقفالها في حالات الحرب أو التهديد بالحصار[3].

3 - **الموقع الجغرافي** الفريد الذي وصفه المؤرخ بينز بأنه «استقر على شبه الجزيرة البارز من أوروبة، والذي يكاد يلاقي الشاطئ الآسيوي وفي وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية في بقعة يحميها مدّ مرمرة العنيف من الهجمات البحرية.

4 - **الأسوار الداخلية** والخارجية الضخمة والمزوّدة بعدد كبير من أبراج المراقبة التي كان لها دور في كشف التحركات المعادية وإبطال عنصر المفاجأة فيها.

5 - **ضعف التجربة الأموية** في حرب الحصار للمدن المتداخلة مع مياه البحر، مثل

(1) الأمويون (1/ 65) محمد سيد الوكيل.
(2) الأمويون والبيزنطيون، ص: 178.
(3) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 167.

القسطنطينية، حيث تطلب ذلك أسلحة متطورة بأساليب جديدة في القتال، لم تكن في متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين[1].

6 - دبلوماسية الدولة البيزنطية والإسلامية: لقد تظاهرت عدة عوامل ساهمت في منع سقوط القسطنطينية منها، مناعة المدينة الطبيعية وقوة تحصيناتها، والنار الإغريقية، ورداءة الطقس وقسوته، والتيارات المائية الشديدة الانحدار الآتية من البحر الأسود لتحول دون استيلاء المسلمين على المدينة، رغم صبرهم وبسالتهم وتحملهم المشاق، وفي النهاية دعت الظروف الداخلية في كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار، فدخلوا في مفاوضات انتهت بعقد صلح بينهما، عاد بمقتضاه الجيش الإسلامي والأسطول إلى الشام.

ففيما يتعلق بالدولة الأموية أدرك معاوية أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف، ولما كانت سنّه قد كبرت، وأحس بدنو أجله، رأى من المصلحة أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول المدينة تحسباً لأي مشاكل قد تواجه ابنه وخليفته يزيد بعد موته، فيكون وجود هذا الجيش عنده ضرورياً لضبط الأمور داخلياً، كذلك كانت الدولة البيزنطية تواقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها، فقد أرهقها وأنهك قواها، ولذلك يقال: إنها أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين، وأكثرهم ذكاء وفطنة، وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه، ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين، وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة براً وبحراً أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة[2].

سادساً: العلاقات السلمية بين الدولتين:

رغم أن الطابع العام الذي ميز العلاقات بين الدولة الإسلامية والبيزنطية في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي كان عسكرياً نتيجة لحركة الجهاد واستمرارها في العهد الأموي من حملات الصوائف والشواتي طوال السنة تقريباً، وكذلك الدور الجهادي الذي كانت تؤديه مدن الثغور، إلا أن هذا لا يعني أن الطابع السلمي المتمثل فيما جرى من مفاوضات ومداولات كان مفقوداً فقد اتخذت العلاقات السلمية بين الدولتين، الإسلامية والبيزنطية في العهد الأموي أشكالاً مختلفة منها: المراسلات، وتبادل الخبرات، والمناظرات في المجالات الثقافية، وتبادل الأسرى والسفراء[3].

---

(1) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 168.

(2) الأمويون والبيزنطيون، ص: 175، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 253.

(3) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 122، 123.

1 - المراسلات:

فقد تم مراسلة قيصر الروم من قبل معاوية في فترة الفتنة وتوصل معه إلى عقد صلح على أن يؤدي معاوية له مالاً وأن يأخذ كل طرف رهناً من الطرف الآخر[1]، وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم ببعلبك، ثم إن الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم، وخلوا سبيلهم وقالوا: وفاء بغدر خير من غدر بغدر[2].

والمهم أن مثل هذه الحوادث يجب أن تُقدَّر بقدرها فلا يجوز للدولة الإسلامية - في الأصل - أن تتهاون وتتكاسل عن الأخذ بأسباب القوة حتى تصل إلى مرحلة من الضعف تمكّن الأعداء منها أو يطمع فيها الطامعون، بل الأصل في دولة الإسلام أن تكون دولة قوية يهابها الأعداء، فإذا مرت بها فترة ضعف أو احتاجت إلى دفع ضرر عليها بمال أو نحوه فذلك يدخل من باب «الضرورات» وليس حكماً عاماً وما «أبيح للضرورة يُقدّر بقدرها» كما قرر الفقهاء[3]، فلا ينبغي عقد صلح دائم مع العدو بدفع المال إليه، بل يجب أن يكون الصلح والدفع لفترة ضعف المسلمين أو حالة الضرورة، مع العمل الجاد على رفع حالة الضعف وبناء قوة الأمة وقدراتها المطلوبة بكل جدية وعزم، فإذا زالت يجب على المسلمين أن يمتنعوا من عقد أي معاهدة فيها ذلة أو مفسدة لهم.

والخلاصة: إنه يجوز للدولة الإسلامية عقد معاهدة اضطرارية تُقدّر بقدرها، وتنتهي بانتهاء حالة الضرورة التي عُقدت من أجلها[4].

لم تقتصر المراسلات على الجانب العسكري فقط، ولكن روت بعض المراسلات التي تتناول المناظرة في الجوانب العلمية والأمور العامة، فقد كتب قيصر الروم إلى معاوية: سلام عليك أما بعد: «فأنبئني بأحب كلمة إلى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة، وعن أربعة أشياء فيهن روح ولم يرتكضن في رحم، وعن قبر يسير بصاحبه، ومكان في الأرض لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة» وغير ذلك من الأسئلة، فكتب إليه معاوية: «أما أحب كلمة إلى الله: فلا إله إلا الله لا يقبل عملاً إلا بها، وهي المنجية، والثانية سبحان الله صلاة الخلق، والثالثة الحمد لله كلمة الشكر، والرابعة الله أكبر، فواتح الصلوات والركوع والسجود، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله. والأربعة فيهن روح ولم يرتكضن في رحم: فآدم، وحواء، وعصا موسى

(1) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 123.
(2) فتوح البلدان، للبلاذري، ص: 163، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص: 239.
(3) الأشباه والنظائر، ابن نجيم، ص: 86.
(4) العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص: 240.

والكبش، والموضع الذي لم تصله شمس إلا مرة واحدة فالبحر حين انفلق لموسى وبني إسرائيل، والقبر الذي سار بصاحبه فبطن الحوت الذي كان فيه يونس»[1].

2 - تبادل الخبرات:

وهي مجال تبادل الخبرات حاول كل من العرب والروم الاستفادة من خبرات الطرف الثاني في مجالات الحياة كافة، معتمدين على الاقتباس تارة، والإبداع تارة أخرى، على أن ما أخذه المسلمون من الروم في هذا المجال لم يكن مجرد اقتباس، بل طور كثيراً بأن أضيف إليه أحياناً وشذب في أحيان أخرى، حتى أصبح يتماشى مع روح الدين الإسلامي، ويتمثل ذلك في معالم النهضة العمرانية المتمثلة في اهتمام الأمويين بالمساجد والتوسع في إقامتها[2].

وقد استخدم معاوية عدداً من الروم ممن كانوا في الإدارة البيزنطية في بلاد الشام قبل فتحها، كتّاباً في الأمور الإدارية، حيث عين سرجون بن منصور الرومي كاتباً له، كما استخدم ابن أثال النصراني طبيباً له[3]، وكان معاوية ﷺ متسامحاً مع النصارى حتى شهد له بروكلمان بهذا التسامح: «واختلطوا بالمسيحية اختلاطاً بعيداً... وفي بلاط معاوية لعب سرجون بن منصور النصراني دور المستشار المالي المتنفذ، وحفظ النصارى للخليفة معاوية هذا التسامح وأخلصوا له، وأعظموه إعظاماً، لاتزال تقع عليه في الروايات النصرانية، وحتى في كتب التاريخ الإسبانية»[4].

3 - تأثر الدولة البيزنطية بالتسامح الإسلامي:

يذكر العدوي: إن انعكاس التسامح الديني مع النصارى ظهر تأثيره على الدولة البيزنطية، إذ من المعروف أنها كانت تضطهد رعاياها من أصحاب المذاهب الأخرى وتعاملهم معاملة قاسية وتعتبرهم هراطقة، وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين في التبعية لها، اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياستها، وجعلت من نفسها صاحبة الحق في رعاية المسيحيين في بلاد الشام[5].

وكان معاوية ﷺ يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة ويستمع إلى

(1) عيون الأخبار (1/ 198، 199)، الحدود العربية - البيزنطية (2/ 387) العلاقات العربية - البيزنطية في العصر الأموي، ص: 126.
(2) التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص: 132.
(3) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 132.
(4) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلاً عن العلاقات العربية - البيزنطية، ص: 140.
(5) العلاقات العربية - البيزنطية في العصر الأموي، ص: 142.

جدلهم الديني ومناقشاتهم المختلفة[1]، وبهذا ضربت الدولة الإسلامية الأموية مثلاً سامياً، يدل على عظمة الرسالة الإسلامية ومدى التسامح الديني تجاه رعاياها من غير المسلمين وابتعادها عن التعنت والتعصب الديني الذي يتهمهم به قسم من المستشرقين[2].

4 - آداب السفراء:

لم يكن نظام الموفدين والسفراء مقتصراً على العهد الأموي بل له امتداداته من عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، فكان السفير يختار وفق مواصفات خاصة تتمثل في قوة شخصيته ونباهته ورجاحة عقله، وكان السفير من كلتا الدولتين، يزود بخطاب يحمل تعريفاً بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسمياً باسم دولته[3].

ولم يكن الموفدون والسفراء مدار اهتمام الدولة الإسلامية الأموية فقط، بل اهتم الروم كذلك بسفرائهم أيضاً، فكانوا يختارونهم من رجال الدين الدهاة العارفين بأمور دينهم، وأصحاب قدرة على النقاش والجدال، فصيحي اللسان، عارفين بالعربية إضافة إلى لغتهم الأصلية[4].

وكان الخلفاء والملوك يهتمون بالسفراء والمبعوثين، ويستقبلون في قصور الخلفاء وتسمع آراؤهم فيها، فحين سأل معاوية رسول البيزنطيين، بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء، أبدى عليه ملاحظاته قائلاً: أما أعلاه فللعصافير، وأما أسفله فللفار، وعندما أدرك معاوية صحة انتقاد السفير وصواب رأيه جعله يعيد بناء قصره بالحجارة[5].

وأما البيزنطيون فكانوا يستقبلون السفراء العرب في كنيسة أيا صوفيا وقناطير المياه والأديرة حول القسطنطينية[6]، وعند رجوع السفير كانت تقدم له الهدايا والمجوهرات الثمينة إكراماً له ولمن بعثه[7]، ويبدو أن الهدف من وراء ذلك عند كلتا الدولتين، هو إظهار صيغ الاحترام المتبادل والنيات الحسنة في إقامة الصلح وإنابة السلام، وكذلك إظهار كل دولة للأخرى مدى قوتها ورخائها، كي تكون محط أنظار السفير ومهابته من أجل وصف ما يشاهده إلى من بعثه عند رجوعه إليه[8].

---

(1) العلاقات العربية - البيزنطية، ص: 142 نقلاً عن الأمويين والبيزنطيين.
(2) المصدر نفسه، ص: 142.
(3) المصدر نفسه، ص: 147.
(4) الأمويون والبيزنطيون، ص: 215 إلى 212.
(5) المصدر نفسه، ص: 220.
(6) المصدر نفسه، ص: 220.
(7) العلاقات العربية - البيزنطية، ص: 148.
(8) المصدر نفسه، ص: 148.

ورغم ما أشير إليه من الصفات التي يجب توفرها في السفير إلا أنه يبقى محط أنظار الخليفة أو الملك وتراقب تصرفاته وحركاته خشية الوشاية والكيد وإشعال نار الحرب، وهذا ما حدث مع سفير معاوية إلى القسطنطينية الذي أرسل لعقد هدنة مع الروم وكان السفير مزوداً بتعليمات مشددة تقتضي ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين، ولكن لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية وتهاون في عقد الهدنة حتى جاءت في صالح البيزنطيين[1]، فلما عاد عزله من منصبه[2].

سابعاً: الجراجمة في عهد معاوية ﷺ:

في أثناء الحروب والغارات بين المسلمين والبيزنطيين، في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ، كان هناك طرف ثالث يشارك في النزاع القائم بينهما، يطلقون على أنفسهم اسم «الجُرَاجِمة» نسبة إلى مدينة «الجُرَجُومة»[3]، وأصولهم غير معروفة، ويشير البلاذري إلى أنهم كانوا يدينون بالنصرانية وأنهم كانوا لذلك يتبعون «بطريق أنطاكية ووالياها»[4].

وعندما فتح المسلمون بلاد الشام أرسل أبو عبيدة عامر بن الجراح حبيب بن مسلمة الفهري: فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بادروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يُؤخَذوا بالجزية، وأن يُنَفَّلوا أسلاب من يقتلون من عدوّ المسلمين إذا حضروا حرباً معهم في مغازيهم[5]. ولكن الجراجمة لم يلبثوا أن نقضوا اتفاقهم هذا، وصنعوا حاجزاً بين المسلمين والبيزنطيين واستطاعوا عرقلة سير الفتوحات الإسلامية في آسيا الصغرى، فكانوا متذبذبين مرّة مع المسلمين وأخرى مع الروم، وقد بقيت شوكة في ظهر الجيوش الإسلامية ليس في عهد معاوية لكن حتى عهد عبد الملك، ثم ما لبثت أن تفرقت في بلاد الشام وآسيا الصغرى، فخفَّ خطرها[6].

وعلى أية حال، فلابد من القول بأن الإنشاءات والمجهودات التي قام بها معاوية ﷺ في سبيل الوصول إلى القسطنطينية وإن كانت لم تثمر خلال حياته إلا أنها لعبت

---

(1) العلاقات العربية - البيزنطية، ص: 149.

(2) المصدر نفسه، ص: 149.

(3) الجرجومة: مدينة على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقا قرب إنطاكية، معجم البلدان (2/ 123).

(4) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 58.

(5) المصدر نفسه، ص: 58.

(6) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 116.

دوراً أساسياً في حفز من جاؤوا بعده من الخلفاء لأن يكملوا المسيرة التي بدأها[1].

ثامناً: أبو مسلم الخولاني من الغزاة في أرض الروم:

وهذا مثال من عظماء الرجال في ذلك العصر الذين ساهموا في صياغة نموذج إسلامي في السلوك والتعامل مع الحكام والمشاركة الإيجابية في المجتمع وحركة الفتوحات.

قال عنه الذهبي: سيِّد التابعين وزاهد العصر واسمه عبد الله بن ثوب على الأصح[2] قدم المدينة وقد قبض النبي ﷺ، واستخلف أبو بكر[3]، وكانت له مواقف محمودة في صد الأسود العنسي الذي تنبَّأ باليمن، وثبت أبو مسلم على الإسلام فبعث إليه الأسود، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنَّه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضُرَّه، فقيل للأسود: إن لم تَنْفِ هذا عنك أفسد عليك من اتَّبعك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة فأناخ راحلته ودخل المسجد يُصلِّي، فبصُر به عمر رضي الله عنه، فقام إليه، فقال: ممَّن الرجل؟ قال: من اليمن. قال: ما فعل الذي حَرقَه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهمَّ نعم، فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصِّدِّيق. فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتَّى أراني في أمة محمد من صنع به كما صنع بإبراهيم الخليل[4].

وهذا التابعي الكبير كان من أهل الشام في عهد معاوية وقد تأثر به خلق كثير بها، وكان رحمه الله كثير العبادة، فعن أبي العاتكة: قال: علَّق أبو مسلم سوْطاً في المسجد[5]، فكان يقول: أنا أولى بالسَّوط من البهائم، فإذا فتر مَشَقَ[6] ساقيه سوطاً أو سوطين.

وروي أنه كان يقول: لو رأيت الجنة عياناً أو النَّار عياناً ما كان عندي مستزاد[7].

وعن شرحبيل: أن رجلين أتيا أبا مسلم، فلم يجداه في منزله، فأتيا المسجد، فوجداه يركع فانتظراه فأحصى أحدهما أنه ركع ثلاث مئة ركعة[8]، وكان أبو مسلم إذا استسقى سُقي[9]، وكان مستجاب الدعوة، فعن محمد بن زياد، عن أبي مسلم، أن امرأة خَبَّبت[10] عليه امرأته، فدعا عليها، فعميت، فأتته فأعرضت وتابت، فقال: اللهُمَّ إن كانت صادقة، فاردُد بصرها، فأبصرت[11].

---

(1) خلافة معاوية، للعقيلي، ص: 116.
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 8، 7).
(3) المصدر نفسه (4/ 8).
(4) المصدر نفسه (4/ 9).
(5) المصدر نفسه (4/ 9).
(6) مَشَقَ: ضربه بسرعة.
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 9).
(8) المصدر نفسه (4/ 10).
(9) المصدر نفسه (4/ 10).
(10) خبَّب فلان على فلان صديقه: إذا أفسده عليه.
(11) سير أعلام النبلاء (4/ 11).

وشارك رحمه الله بالجهاد في أرض الروم، وعن أبي مسلم الخولاني: أنَّه كان إذا غزا أرض الروم، فمرُّوا بنهر فقال: أجيزوا بسم الله، ويمر بين أيديهم، فيمرون بالنهر الغَمْر، فربما لم يبلغ الدَّوابُّ إلا الرُّكب، فإذا جازوا قال: هل ذهب لكم شيء؟ فمن ذهب له شيء فأنا ضامن له، فألقى بعضهم مِخْلاته عمداً. فلما جاوزوا قال الرجل: مِخْلاتي وقعت، قال: اتَّبعني فاتّبعه، فإذا بها معلَّقةٌ بعود في النهر، قال: خذها[1]، وكان الولاة يتيمَّنون بأبي مسلم، ويؤمِّرونه على المقدِّمات[2].

وقد توفي رحمه الله بأرض الروم، وكان شتا مع بُسر بن أبي أرطاة فأدركه أجله، فعاده بُسر في مرضه فقال له أبو مسلم: يا بُسر، اعقد لي على من مات في هذه الغزاة فإني أرجو أن آتي بهم يوم القيامة على لوائهم[3]، وعندما سمع معاوية رضي الله عنه بموته قال: إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبي مسلم الخولاني وكريب بن سيف الأنصاري[4].

وكان رحمه الله من أهل الحكمة فقد روي عن أبي مسلم الخولاني في مجال الرِّضى التام بقضاء الله وقدره، قوله: لأن يولد لي مولود يحسن الله عز وجل نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إليّ قبضه منّي أحب إليّ من أن يكون لي الدنيا وما فيها[5]. وهذا دليل على كمال توحيد أبي مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني حيث جاوز مرحلة الصبر على أقدار الله المؤلمة إلى مرحلة الرضى بقضاء الله، فاعتبر المصيبة بفقد ولد قد أحسن الله نباته وكان على خير ما يتمناه المؤمن شباباً وصلاحاً أحبّ إليه من الدنيا وما فيها[6].

هذه بعض الملامح العريضة على الجبهة الشامية المتعلقة بالجهاد في عهد معاوية رضي الله عنه.

المبحث الثاني

فتوحات الشمال الإفريقي في عهد معاوية رضي الله عنه

أولاً: حملة معاوية بن حديج رضي الله عنه:

معاوية بن حديج الكندي له صحبة ورواية قليلة عن النبي ﷺ فقد روى حديث رسول الله ﷺ: «**إن كان في شيء شفاء فشربة عسل أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي**»[7].

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 11).
(2) المصدر نفسه (4/ 13).
(3) المصدر نفسه (4/ 13).
(4) المصدر نفسه (4/ 14).
(5) صفة الصفوة (4/ 213) حلية الأولياء (2/ 127).
(6) التاريخ الإسلامي (19/ 356).
(7) سير أعلام النبلاء (3/ 37) إسناده صحيح.

وكان ﷺ ملكاً مطاعاً من أشراف كندة[1]، وكان من خيرة الأمراء، فعن عبد الرحمن بن شماسة قال: دخلت على عائشة، فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل مصر، قالت: كيف وجدتم ابن حُديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل منا فرس ولا بعير إلا أبدل مكانه بعيراً، ولا غلاماً إلا أبدل مكانه غلاماً. قالت: إنه لا يمنعني قتله أخي أن أُحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ: «**اللهم من ولي من أمر أُمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه**»[2].

وبعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ، كانت جبهة شمال أفريقيا من أولى الجبهات التي وجه إليها اهتمامه، لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية ومن ناحية أخرى فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، العدو اللدود للمسلمين، والتي صمم أمير المؤمنين معاوية على تضييق الخناق عليها، وعدم إعطائها فرصة لالتقاط أنفاسها، ففي الوقت الذي واصل فيه ضغطه عليها من الشرق، وزحفه على جزرها في البحر المتوسط تمهيداً للوصول إلى عاصمتها القسطنطينية - كما سبق ذكره - نراه قد قرر أن يطوقها من الجنوب، من شواطي شمال إفريقيا التي كانت تعتبرها من أملاكها، ففي أول سنة من حكمه 41 هـ أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقيا، ثم أرسله ثانية سنة 45هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقيا وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش، فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقاً يقال له: نقفور في ثلاثين ألف مقاتل، فنزل الساحل، فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة[3]، اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفوراً أقلع من في البحر منهزماً من غير قتال، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء[4] فحاصرها وقتل من أهلها عدداً كثيراً حتى فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 40).

(2) مسلم رقم (1828).

(3) سوسة مدينة صغيرة بنواحي إفريقيا، بينها وبين القيروان ستة وثلاثين ميلاً ويحيط بها البحر من ثلاث جهات من الشمال والجنوب والشرق، معجم البلدان (3/ 282).

(4) هنالك مدينتان تحملان هذا الاسم، إحداهما بفارس، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهي على طرق خراسان، وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة 16هـ، وهذه التي بإفريقيا بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً - ياقوت الحموي معجم البلدان (2/ 156).

وغنموا وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقيا بغنائم كثيرة[1].

وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر دون أن يترك قائداً أو عاملاً، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة: أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومي من هذه الناحية[2].

وعندما استعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب ترك فيها رويفع بن ثابت الأنصاري والياً عليها سنة 46هـ، فغزا منها إفريقيا «تونس» ودخلها سنة 47هـ، وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر[3]، وقد تحدثت المراجع عن كثرة السبايا في هذه الغزوة وقام رويفع بن ثابت الأنصاري بتذكير المسلمين في هذه بأحكام وطء السبايا، حيث قال: أما إني لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين: «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره**[4]، **ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع**[5] **على امرأة من السبي حتى يستبرئها**[6]، **ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً**[7] **حتى يُقسم**»[8].

وقد بقي في ولاية طرابلس الغرب ثم ولاه مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقي عليها أميراً ومات بها سنة 56هـ، وقبره معروف في الجبل الأخضر ببرقة في مدينة البيضاء، وهو آخر من توفي من الصحابة هناك، وروى عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهاً من أصحاب الفتيا من الصحابة، وكان خطيباً مفوهاً[9].

ثانياً: عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

هو عقبة بن نافع القرشي الفهري، نائب إفريقيا لمعاوية وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها الناس[10]، وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر،

---

(1) البيان المغرب لابن عذارى (1/ 16.17)، الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص: 209، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، شكري فيصل، ص: 161.

(2) تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس (1/ 85).

(3) صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقي، للصّلابيّ، ص: 332.

(4) زرع غيره: أي محل زرع لغيره، يعني إتيان الحبالى.

(5) يقع على امرأة: يجامعها.

(6) يستبرئها: بحيضة أو بشهر.

(7) مغنماً: أي شيئاً من الغنيمة.

(8) يُقسم: أي من الغانمين ويخرج منه الخمس.

(9) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 486)، صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقي، ص: 333.

(10) سير أعلام النبلاء (3/ 532).

واختطّ بها[1]، فقد أسند معاوية بن أبي سفيان قيادة حركة الفتح في إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص، واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام، وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال إفريقيا كله، ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في إفريقية وكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه[2]، وسار في جموعه حتى نزل بمغمداش من سرت[3]، فبلغه أن أهل ودان[4] قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبي أرطأة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو ابن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان[5]، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا[6]، ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوّار[7]، وخاور[8]، وغدامس[9]، وغيرها[10].

ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيره المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل، وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي[11].

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 533).
(2) الكامل في التاريخ (2/ 483).
(3) سرت: مدينة بين برقة وطرابلس، معجم البلدان (3/ 206).
(4) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، معجم البلدان (5/ 365، 366).
(5) فزان : جنوب ليبيا ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة.
(6) فتوح مصر، ص: 132.
(7) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان، معجم البلدان (4/ 486).
(8) خاور : مدينة جنوب فزان.
(9) غدامس : مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية.
(10) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 296.
(11) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 280.

ثالثاً: بناء مدينة القيروان:

في سنة 50هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشؤون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم، فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها[1]، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة، فهم مرابطون[2]، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم[3]، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها[4].

وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: لمّا افتتح عقبة إفريقية قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فاظعنوا، ثلاث مرات فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطن بطن الوادي، ثم قال للناس: انزلوا باسم الله[5]، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة[6]، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار.

وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة 55هـ، وسكنها الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثيراً من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[7].

(1) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 38).
(2) البيان المغرب (1/ 19).
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 270.
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 533).
(5) رياض النفوس (1/ 9) معالم الإيمان (1/ 9)، سير أعلام النبلاء (3/ 533).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 533) وخروج الدواب بسبب دعاء عقبة وتأمين من معه رواية صحيحة الإسناد.
(7) الكامل في التاريخ (2/ 484).

وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائماً إلى جوار بعضهما، ويكونان دائماً في قلب المدينة التي يختطها المسلمون ويرتكزان في وسطها[1]، وبينهما يبدأ الشارع الرئيس للقيروان، الذي سيسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغاً حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيس في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها، وكان الكثير منهم دخل في الإسلام، وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم، وهكذا نشاهد فيما بين سنتي 50 و55هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي[2].

1 - الخصائص المتوفرة في موضع القيروان:

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية في قرار عقبة في اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتي:

أ - بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط أي بحر أو نهر: فهو يقع على الطريق البري الذي يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رَحِمَهُ اللَّهُ أخذ بنظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب - موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع في أن يكون الموضع قريباً من السبخة: فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها في مراعيها[3]..، وكذلك في الكلمات التي عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم في الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر[4].

جـ - بأنه يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التي كان فيها موضع القيروان عبارة غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهاً لجبال أوراس، معقل قبائل

(1) الأمويون، محمد سيد الوكيل (1/ 72).

(2) تاريخ المغرب وحضارته (1/ 89).

(3) الروض المعطار، ص: 486، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، د. عبد الجبار ناجي، ص: 252.

(4) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (1/ 78).

البربر، إذاً فإنه كان في بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التي تكفل للمجاهدين المسلمين مورداً غذائياً مهماً[1].

د - صحيح أن المشكلة الرئيسة التي جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هي الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصريين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين:

الأول منهما: الأمطار، حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل).

وثانيها: مياه وادي السراويل في قبلة المدينة، لكنه كان مالحاً. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان قائلاً: وشربهم من ماء المطر، إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها (المؤجل).. ولهم وادٍ يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجونه[2]، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجياً إلى حد ما[3].

2 - القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية:

لم تبدأ الحياة العلمية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة 50هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق، ومما رشح القيروان في هذه المكانة ما يلي:

أ - إن إنشاء مدينة القيروان يعني أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي الكبير، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقي مسؤولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها[4].

ب - لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابياً[5]، وقد مكثوا فيها خمس سنوات

(1) القيروان، للحبيب الجنحاني، ص: 59.
(2) القيروان للحبيب الجنحاني، ص: 59.
(3) دراسات في المدن العربية الإسلامية، ص: 252.
(4) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 50).
(5) البيان المغرب (1/ 20).

كاملة كان عملهم فيها - ولا شك - نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً[1]، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة مما دعا عقبة أن يوصي أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن[2].

جـ - لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين[3]، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة[4]. ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام[5]، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً، ودعّم حسان بن النعمان - فيما بعد - جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر، حيث خصّص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام[6]، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن، وأن يفقّهوهم في الدِّين[7]، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله[8].

د - كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب[9]: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد

(1) البيان المغرب (1/ 23).
(2) شجرة النور (2/ 100) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 51).
(3) تاريخ ابن خلدون (4/ 186).
(4) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 51).
(5) البيان المغرب (1/ 27) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 51).
(6) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 52).
(7) البيان المغرب (1/ 42).
(8) المصدر نفسه (1/ 42).
(9) الرياض (1/ 91) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 52).

وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية[1].

ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جداً، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه[2]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين: أولاهما سنة 60هـ أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة 78هـ[3].

هـ - إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمرّ بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها[4]، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته، فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق[5].

و - لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهماً في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان[6].

ز - وممّا أسهم في شراء الحياة العلمية: كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيراً من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتي استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب[7].

ح - كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه

(1) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 52).
(2) أسد الغابة، نقلاً عن مدرسة الحديث في القيروان (1/ 52).
(3) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 53).
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه (1/ 53).
(6) المصدر نفسه.
(7) المصدر نفسه (1/ 54).

صحابة رسول الله ﷺ، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب[1].

كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية في إفريقية والمغرب حتى وصفها أبو إسحاق الجبنياني بقوله: القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل ولا قتل على إحياء السنة إلا أئمتها[2].

وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي، من ذلك ما وصفها به ماقديشي بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب، ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام[3].

وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الإفريقية، وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء، ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب[4]، لقد قامت القيروان بدور كبير في فتح شمال إفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام في المغرب، وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية[5].

رابعاً: عزل عقبة وتولي أبي المهاجر دينار سنة 55هـ:

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يعزله ويولي مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً، فقال: . . . إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل، فنحن نحب أن نكافئه[6]، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتباً، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة، ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من

(1) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 54).
(2) مناقب أبي إسحاق الجبنياني، ص: 60، 61.
(3) حسن البيان للشيخ محمد النيفر، ص: 189.
(4) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 55).
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 270.
(6) فتوح مصر، ص: 134، البيان المغرب (1/ 22).

الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته[1]، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخى - كما يقول ابن عذارى - حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد، فرد عقبة والياً على إفريقية[2].

وهناك نقطة في هذا الموضوع، وهي الإساءة التي تعرض لها عقبة من أبي المهاجر أثناء عزله، فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديداً[3]، ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ قال الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف في كتابه القيم: ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد بأنه هو الذي أوعز إلى أبي المهاجر أن يسيء إلى عقبة[4]. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصاً وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولى أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديداً، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[5]. ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه وأقسم له بالله لقد خالفه أبو المهاجر بما صنع وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة[6]، ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصياً كان يجل عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال: هذا رجل لا يرد له دعاء؟ هذا هو السؤال الذي لا نملك عليه جواباً شافياً.. اللهم إلا الاستنتاج الذي أخذ به محمد علي دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطراراً إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة، لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبي المهاجر، ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين[7].

إن كان هذا الاستنتاج صحيحاً وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذي يوجهه إلى أبي المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين

(1) فتوح مصر، ص: 134.
(2) البيان المغرب (1/ 22) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 271.
(3) فتوح مصر، ص: 133 - 134، البيان المغرب (1/ 22)
(4) فتح العرب للمغرب، ص: 151.
(5) فتوح مصر، ص: 133.134.
(6) فتوح مصر، ص: 134.
(7) تاريخ المغرب الكبير (2/ 32-33).

القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل الأحقاد، وأن يكون السابق منهم حريصاً كذلك على أن يعطي خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح في مهمته، لأن هدفهم واحد وهو الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه[1].

خامساً: فتوحات أبي المهاجر دينار (55 - 62هـ):

على الرغم من الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو المهاجر في حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة ابن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول أنه قام بدور عظيم في فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام ديناً ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى - بثاقب نظره - أن سياسة الشدة التي كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تغيَّر، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم، فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة، وقد نجح أبو المهاجر في سياسته تلك نجاحاً كبيراً.

كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر في شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم[2]، الذين أخذوا يتحببون إلى البربر، ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد يستعمروهم ويستعبدونهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذي فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربقة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم إفريقية وجنوبه، لازالوا قوة في الشمال، ولازالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم لازالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبي المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم في تلك النواحي، ويكسر الحلف الذي عقدوه مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها[3]، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها، فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فيدخل العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك[4]، لتنزل فيها جنوده.

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 274.

(2) تاريخ المغرب الكبير (2/ 33).

(3) النجوم الزاهرة (1/ 152).

(4) سميت شريك نسبة إلى شريك العبسي وهي تقع شرق قرطاجنة، تاريخ المغرب الكبير (2/ 34).

وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد[1].

رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسايراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعاً، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة[2]، على خمسين ميلاً من بجاية في جنوبها الشرقي[3] فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها.

وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين، وقد استثمر هذه المدة في الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح في سياسته نجاحاً كبيراً فأقبل البربر على الإسلام، وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب - قسطنطينية الآن ونواحيها إلى بجاية[4] - لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحي، سكون البحر بعد العاصفة[5]. وترامت الأخبار إلى أبي المهاجر أن جمعاً من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة[6]، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان البربر يجلونه ويحبونه، وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين فرآهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر في ميلة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة

(1) تاريخ المغرب الكبير (2/ 34)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 276.
(2) النجوم الزاهرة (1/ 152) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 277.
(3) بجاية على ساحل البحر بين تونس والمغرب، معجم البلدان (1/ 339).
(4) تاريخ المغرب الكبير (2/ 35).
(5) المصدر نفسه (2/ 35) العالم الإسلامي في العصرالأموي، ص: 277.
(6) تاريخ ابن خلدون (6/ 146) تاريخ المغرب الكبير (2/ 38).

فلبسوا لأمة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم[1].

1 - معركة تلمسان[2]:

بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار.

2 - إسلام كسيلة:

أسر كسيلة في معركة تلمسان وحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك[3]، وطمع في إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته، وإنه دين التوحيد الخالص، والعدل والمساواة، والأخوة، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئاً، بل العكس سوف يكسب الكثير روحياً ومادياً، وكان كسيلة ذكياً طموحاً مخلصاً لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح، فآمن كسيلة، وأصبح من المسلمين وأغرم بالعربية فصار يتعلمها، وأصبح من المقربين من أبي المهاجر وشمّر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين ودعا قومه البربر للدين الحنيف، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين.

وعاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريباً من القيروان، وأقام بقرية تسمى دكرور يراقب الأمور، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقي، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام، فقد توفي مولاه مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر سنة 62هـ وكان مسلمة سنداً قوياً لأبي المهاجر، فلما زال هذا السند أعاد يزيد بن معاوية (60 - 64هـ) عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية وعزل أبا المهاجر[4].

وفي تولية أبو المهاجر على إفريقية دليل على ثقة مسلمة بن مخلد الأنصاري فيه وحسن معاملة الموالي في الإسلام، وبيان أن الناس كلهم سواسية في الإيمان سواء أكانوا عرباً

(1) تاريخ المغرب الكبير (2/ 38).

(2) هما مدينتان أحدهما قديمة والأخرى جديدة اختطها المرابطون، فهي كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر، معجم البلدان (2/ 44).

(3) تاريخ المغرب الكبير (2/ 38).

(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 279.

مسلمين أم أجناساً أخرى من غير العرب، ونستدل من هذا الاختيار على أن الموالي قد تمتعوا بمكانة مرموقة في العصر الأموي بعكس ما تصوره بعض الأقوال، وقيل أن أبا المهاجر من موالي النوبة في مصر، وقيل بأنه يرجع إلى أصول بربرية[1].

سادساً: حملة عقبة بن نافع الثانية (62 - 63هـ):

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه في وثاق شديد[2]، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفياً شهماً غيوراً، فلم يبخل بنصائحه لعقبة بالرغم مما حدث بينهما من الجفوة، ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه[3]. فتهاون به عقبة، وسيأتي الحديث عن غدر كسيلة بالمسلمين، وكيف اغتنم فرصة انفراد عقبة في بعض جيشه كما سيأتي بيانه، وكيف قال عقبة لأبي المهاجر: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أغتنم الشهادة، فقال أبو المهاجر: وأنا أغتنم الشهادة مثلك، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا[4].

قد لاحظنا أن أبا المهاجر خاض معركة واحدة كبرى دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر، ودخل بعض زعمائهم في الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومه في الإسلام، ووفر أبو المهاجر بذلك جهوداً كبيرة لابد من بذلها في فتح بلاد المغرب لو بقي أولئك البربر على كفرهم، ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه، إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين

(1) خلافة معاوية، للعقيلي، ص: 130، 131.
(2) فتوح مصر، ص: 134.
(3) قادة فتح المغرب (1/ 137 - 142) رياض النفوس (1/ 26).
(4) رياض النفوس (1/ 26 - 27) قادة فتح المغرب (1/ 137 - 142).

وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم[1].

ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها: العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة، وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته، وإنما كان رائدهما النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أقرب إلى الصواب في هذه القضية[2].

1 - جهاده من القيروان إلى المحيط:

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين، عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين، قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي ودعا لها قائلاً: يا رب املأها علماً وفقهاً واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض[3]، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف، إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله ﷻ فلا أزال أجاهد من كفر بالله، ثم قال: يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملئوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله ﷻ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تُداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذُلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا.

ثم قال: عليكم سلام الله وأُراكم لا ترونني بعد يومكم هذا... ثم قال: اللهم تقبّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك[4].

(1) التاريخ الإسلامي (13/ 254).
(2) المصدر نفسه (13/ 254).
(3) البيان المغرب (1/ 23)، الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 126).
(4) البيان المغرب (1/ 23) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي، ص: 248.

وهكذا ما إن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده: إني قد بعت نفسي من الله ﷻ فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله ﷻ، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]. فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض[1]، وفي وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ - **الوصية الأولى**: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله ﷻ، وما أبلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

ب - **الوصية الثانية**: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

جـ - **الوصية الثالثة**: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله ﷻ [2]. ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلّم عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك[3]. وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة[4].

---

(1) التاريخ الإسلامي (13/ 257).
(2) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي، ص: 259.
(3) البيان المغرب (1/ 23).
(4) التاريخ الإسلامي (13/ 258).

سار عقبة في جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية[1]، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصرهم مدة، ثم سار إلى تلمسان وهي من أعظم مدائنهم، فانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه في جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم، ولكن منَّ الله عليهم بالصبر فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم، فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة[2].

ثم استمر غرباً قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له «أَرَبَه» وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم، ورحل عقبة إلى «تاهرت» فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم.

وقام عقبة بن نافع في الناس فخطب خطبةً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعة الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم ﷻ لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله ﷻ جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين[3].

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع ﷺ قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة.. ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين، وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد ﷺ، الذي كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم - من غير غرور ولا استهانة - كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذه له قدوة في

(1) مصر في العصر الأموي، ص: 123، الكامل في التاريخ (2/ 589).
(2) البيان المغرب (1/ 23-27) التاريخ الإسلامي (13/ 261).
(3) البيان المغرب (1/ 23-27) قادة الفتح المغرب العربي (1/ 108-120).

القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسآمة، وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به[1].

هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم في مدينة «تاهرت» وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم[2]، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريقاً من الروم اسمه «جوليان» الذي: أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه[3] ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا، إنه محفوظ لا يرام[4]، ثم سأله عن البربر والروم بقوله: دلني على رجال البربر والروم فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم في عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى، وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين[5]..

استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربي، قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادي درعا، حيث بنى مسجداً في مدينة درعا ثم غادر صحاري مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة «تافللت» من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كي يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة في مدينة «اغمات»، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تفيس[6]، حيث حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصراً وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها «إيجلي» التي بنى فيها مسجداً، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام، فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة «ماسة» ومنها إلى رأس «إيفران» على البحر المحيط[7].

وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد

(1) التاريخ الإسلامي (13/ 260).
(2) الكامل في التاريخ (2/ 590).
(3) المصدر نفسه (2/ 590).
(4) المصدر نفسه (2/ 590) مصر في العصر الأموي، ص: 125.
(5) الكامل في التاريخ (2/ 590) مصر في العصر الأموي، ص: 125.
(6) مصر في العصر الأموي، ص: 126، البيان المغرب (1/ 26-27).
(7) الكامل في التاريخ (2/ 590).

المغرب، وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ثم قال: اللهم أشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك، ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً[1].

وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسؤولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد إذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس[2].

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى[3]، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء «شاكر» الذي بنى رباطاً ما بين بلدتي مراكش وموجادور، ولا زال موقعه باقياً إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدي شاكر[4]، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعاً مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة[5]، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام[6].

---

(1) الكامل في التاريخ (2/ 590)، البيان المغرب (1/ 27،23). قادة الفتح المغرب العربي (1/ 108-120).
(2) التاريخ الإسلامي (13/ 262).
(3) رياض النفوس (1/ 26)، الإسلام والتعريب (1/ 133).
(4) البيان المغرب (1/ 27).
(5) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 133).
(6) تاريخ ابن خلدون (6/ 108).

وكي يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولي عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة فقد ترك عليها أبا مدرك زرعة بن أبي مدرك، أحد رؤسائها، الذي شارك في فتح الأندلس فيما بعد[1].

ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبة على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب «عقبة» نساء لم ير الناس مثلهن، فقيل أن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر[2]، وكان السبي أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية، ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب والبربر أوجد صلات وروابط تجلت في الحلف والولاء في هذا الوقت المبكر[3]. يذكر السلاوي: أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناتة وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة[4]وهذا يشعر بأن بعض زناتة ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتين للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين[5].

2 - استشهاد عقبة بن نافع وأبو المهاجر رحمهما الله تعالى:

يبدو أن عقبة المجاهد المخلص، كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً في هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله ﷻ . . . إلى أن قال: ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله. . اللهم تقبل نفسي في رضاك[6]. نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله في الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهوذة[7]، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده.

وترجع المصادر أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيس وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة، ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة في قومه، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة ولم يكتم

(1) فتوح مصر، ص: 207، الإسلام والتعريب (1/ 134).
(2) رياض النفوس (1/ 24).
(3) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 134).
(4) المصدر نفسه (1/ 135).
(5) المصدر نفسه (1/ 135).
(6) البيان المغرب (1/ 24،23).
(7) تهوذة : اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم.

نصيحته عنه - رغم أنه كان في حكم المعتقل - ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة وهذا الإذلال الذي لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره[1]، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضاً وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر في غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصداً القيروان، ولما صار قريباً من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً، وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد في أي عمل يتوجه إليه. ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قِبَلَ لهم به[2]، وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة في جمع عدته خمسون ألفاً[3]. وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فلمّا رأى الجموع تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن تمرغَ الخيلُ بالقنا ... وأُتركَ مشدوداً عليّ وثاقيا
إذ قمتُ عنّاني الحديد وأُغلقت ... مصارعُ من دوني تصمُّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة[4]، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد «تهوذة» من أرض الزاب، ويَذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها[5].

(1) الكامل في التاريخ (2/ 591).
(2) التاريخ الإسلامي (13/ 263).
(3) البيان المغرب (1/ 25).
(4) الكامل في التاريخ (2/ 591).
(5) التاريخ الإسلامي (13/ 264)، البيان المغرب (1/ 28).

وهكذا تحقق أمل عقبة وأبي المهاجر ونالا الشهادة في سبيل الله، ومن معهم من الفرسان بعدما قاموا بالواجب الذي عليهم، واستقبلوا الشهادة في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده: زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله[1].

ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره، وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وانتهاء بالمغرب الأقصى[2].

3 - أثر معركة تهوذة على المسلمين 63هـ:

كانت معركة تهوذة مصيبة على المسلمين، فقد استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وصحبه، وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين، وانتابتهم حالة من الهلع والفزع، فمع أن العدد الذي استشهد مع عقبة كان قليلاً - قيل حوالي ثلثمائة جندي - وأن معظم الجيش كان قد سار متقدماً ونجا من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم، حتى يحتفظ بوجوده في القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك.

وقد حاول زهير بن قيس البلوي خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ في الجنود روح المقاومة والتصدي لكسيلة عندما زحف على القيروان، وهتف قائلاً: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك[3]، ولكن صيحة زهير هذه لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتثبيطاً، حيث تصدى له حنش الصنعاني وقال له: لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال: يا معشر المسلمين، من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في أثره، ولحق بقصره ببرقة وأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان[4].

وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد القيروان، وبها أصحاب الأثقال

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 284، 285.
(2) التاريخ الإسلامي (13/ 265).
(3) البيان المغرب (1/ 31).
(4) المصدر نفسه (1/ 31)، النجوم الزاهرة (1/ 159).

والذراري من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع، إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان[1]، ولئن أخرجت إفريقية من يد المسلمين فإنها لم تخرج عن الإسلام، فقد أسلمت قبائل من البربر وثبتت على إسلامها وكانت تعيش بالقيروان، وكان كسيلة يحسب حسابها ويتفاداها لشدة بأسها، فقد اعترف كسيلة بذلك حين اقترح على جيشه الخروج من القيروان واختيار موضع آخر لمواجهة جيش زهير الذي أمده به عبد الملك بن مروان، قال كسيلة: إني أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلها، فإن هذه المدينة «يعني القيروان» فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد، فلا نغدر بهم ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبتوا علينا[2].

هذا وقد بقيت القيروان بيد كسيلة مدة تقارب خمس سنوات من عام 64هـ - 69هـ حتى خلصها زهير البلوي من قبضته بعد أن أمده عبد الملك بن مروان بجيش كبير، وسيأتي الحديث عن زهير بإذن الله في عهد عبد الملك بن مروان.

وفي مقتل عقبة رحمه الله درس بليغ وهو أهمية الحذر من العدو، فقد أرسل جنوده وبقي في مجموعة قليلة من المقاتلين رغباً في الشهادة وهذا مطلب سامي وكبير، إلا أن استشهاده كان له آثار سيئة على الفتوحات في شمال إفريقيا وضاعت القيروان من أيدي المسلمين لمدة خمس سنوات وتأخرت الدعوة الإسلامية، لذلك يجب على القادة أن يوازنوا بين مصالح الأمة الكبرى وحرصهم على الشهادة.

المبحث الثالث

فتوحات معاوية في الجناح الشرقي للدولة الأموية

كان المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد أتموا فتح البلاد التي تقع بين العراق ونهر جيحون، وتضم جرجان وطبرستان وخراسان وفارس وكرمان وسجستان، فلما قتل عثمان تعثرت حركة الفتح، وخرج أكثر أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا جاء عهد معاوية رضي الله عنه أخذت دولته تبذل جهوداً بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة ومد حركة الفتح[3].

---

(1) النجوم الزاهرة (1/ 160)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 286.

(2) رياض النفوس (1/ 30) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 136).

(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 219.

أولاً: فتوحات خراسان[1] وسجستان وما وراء النهر:

لما استقامت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان ولّى عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان[2]، ولقد جاء تعيين عبد الله بن عامر في هذا المنصب نظراً لخبرته السابقة في هذه المنطقة، وفي سنة (42هـ - 43هـ) عين ابن عامر عبدَ الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس والياً على سجستان فأتاها وعلى شرطته عبّاد بن الحصين الحبطي ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وعبد الله بن خازم السُّلمي، وقطري بن الفجاءة، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي، ففتحوا في هذه الحملة مدينة زرنج[3] صلحاً، ووافق مرزبانها على دفع ألفي ألف (مليوني) درهم، وألفي وصيف.

ثم تقدموا نحو مدن خواش[4]، وبست[5]، وخُشَّك[6]، وغيرها من البلدان وتمكنوا من فتحها، كما تمكنوا من فتح مدينة كابل بعد أن ضربوا عليها حصاراً استمر لعدة أشهر[7].

وما لبث أن جعل معاوية ﷺ إقليم سجستان ولاية مستقلة وأمّر عليها عبد الرحمن بن سمرة كمكافأة له على تحقيقه مثل تلك الفتوحات[8]. وظل عبد الرحمن والياً عليها حتى قدم زياد بن أبي سفيان البصرة معيناً عليها بدل عبد الله بن عامر، والذي عزله معاوية سنة 45هـ كما مر معنا، وعادت ولاية خراسان وسجستان مرة أخرى تحت إشراف والي البصرة.

وعند وصول زياد البصرة سنة 45هـ قسم خراسان أربعة أقسام هي: مرو وعليها أُمَير أحمد اليشكري والذي كان أول من أسكن العرب في مرو[9] ونيسابور وعليها خُلَيد بن عبد الله الحنفي، مرو الرُّود والطالقان والفارياب وعليها قيس بن الهيثم السُّلمي، هَراة وباذغيس وبوشنج وقاديس: وعين عليها نافع بن خالد الطاحي الأزدي[10]، وفي سنة 47هـ عمل زياد على جعل السلطة المركزية في خراسان في مدينة مرو «القاعدة الأساسية فيها».

---

(1) خراسان: أي مطلع الشمس.
(2) تاريخ الطبري (6/ 133).
(3) زرنج: مدينة كبيرة هي قصبة سجستان معجم البلدان (3/ 138).
(4) خواش: مدينة بسجستان، معجم البلدان (2/ 398).
(5) معجم البلدان (1/ 414).
(6) خشك: بلدة من نواحي كابل، معجم البلدان (2/ 373).
(7) فتوح البلدان، ص: 395.
(8) المصدر نفسه، ص: 396.
(9) المصدر نفسه، ص: 408.
(10) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلي، ص: 135.

ثانياً: تعيين الحكم بن عمرو الغفاري:

وكان عفيفاً وله صحبة[1]، وفي سنة 47هـ غزا الحكم «طخارستان»[2]، فغنم غنائم كثيرة ثم سار إلى جبال الغور[3] وغزا أهلها الذين ارتدوا على الإسلام فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة[4]، وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بخراسان، فغزا معه بعض جبال الترك، وغزا معه جبل «الأشل»[5] من جبال الترك، إلا أن الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق واحتار الحكم بالأمر، فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك، فقال له: إما أن تخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنك، فقال له: أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق، وسير الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه، وفعل ذلك المهلب، فسلم الناس بما معهم من الغنائم[6].

وقطع الحكم نهر جيحون وعبر إلى ما وراء النهر[7] في ولايته ولم يفتح، وكان أول من شرب من مائه من المسلمين هو أحد موالي الحكم، فقد اغترف بترسه بماء النهر، فشرب وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الحكم أول من فعل ذلك[8].

وقد قال عبد الله بن المبارك لرجل من أهل «الصغانيات»: من فتح بلادك؟ فقال الرجل: لا أدري!! فقال ابن مبارك: فتحها الحكم بن عمرو الغفاري[9].

وقد مات الحكم سنة50هـ[10]، فخلفه الصحابي الجليل غالب بن فضالة الليثي والذي واصل سياسة سلفه في إرسال حملات منظمة في فتح طخارستان، ولكنه رغم كل الجهود التي بذلها لم يحرز أي تقدم يذكر في ولايات طخارستان[11]، لذلك عزله زياد وولى مكانه الربيع

---

(1) فتوح البلدان، ص: 409.
(2) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد.
(3) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزة.
(4) الكامل في التاريخ (2/ 478).
(5) الأشل: جبل في ثغور خراسان.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 118.
(7) ما وراء النهر: جيحون بخراسان فما كان في شرقه، يقال له: ما وراء النهر، وما كان غربه فهو خراسان، وولاية خوارزم، معجم البلدان (7/ 370).
(8) الكامل في التاريخ (2/ 478).
(9) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 400، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 118.
(10) طبقات ابن سعد (7/ 29).
(11) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 136.

ابن زياد الحارثي «50 - 53هـ[1]»، وقد استطاع الربيع بن زياد إبان فترة ولايته على خراسان أن يغزو بلخ فصالحه أهلها، ثم غزا قوهستان ففتحها عنوة، ثم إن ابنه عبد الله، خلفه لبضعة أشهر من عام 53هـ، وخلفه خليد بن عبد الله الحنفي في إدارة الإقليم، وظل خليد في منصبه هذا حتى وصل عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان عامل معاوية ﷺ المعين على خراسان في سنة 54 - 55هـ، وكان عبيد الله ابن 25 عاماً[2].

ثالثاً: عبيد الله بن زياد:

ما إن وصل عبيد الله إلى مرو حتى قاد حملة مكونة من 24 ألف رجل، وقطعوا نهر جيحون على الإبل وفتحوا راميثين[3] ونسف[4] وبيكندة[5] فأرسلت «خاتون» ملكة «بخارى» إلى الترك تستمدهم، فجاءهم منهم عدد كبير، فلقيهم المسلمون وهزموهم، وعند القتال انتصروا عليهم[6]، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان وصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم فلم يفتح بخارى وفتح بيكندة[7].

وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف «خراسان» التي تذكر، وقد ظهر منه بأس شديد[8]، فقد ذكر شاهد عيان، فقال: ما رأيت أشجع بأساً من عبيد الله بن زياد، لقينا زحف الترك بـ«خراسان»، فرأيته يقاتل فيحمل عليهم، فيطعن فيهم ويغيب عنا، ثم يرفع رايته تقطر دماً.

وبقي عبيد الله بخراسان سنتين[9]، إذ ولاه معاوية البصرة سنة 55هـ[10]، فقدم معه البصرة بخلق من أهل بخارى[11] وهم ألفان كلهم جيد الرمي بالنشاب[12]، وتولى ابن زياد أرفع المناصب في أيام معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، وكان موضع ثقة بني أمية، وكان

---

(1) فتوح البلدان، ص: 409، خلافة معاوية للعقيلي، ص: 136.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة معاوية، ص: 138.
(3) الكامل في التاريخ (2/ 506).
(4) المصدر نفسه (2/ 506).
(5) المصدر نفسه (2/ 506).
(6) تاريخ اليعقوبي (2/ 211) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 125.
(7) فتوح البلدان، ص: 401، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 125.
(8) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 125.
(9) الكامل في التاريخ (2/ 506).
(10) الكامل في التاريخ (2/ 507).
(11) الكامل في التاريخ (2/ 506) الفتوح، ص: 401.
(12) الفتوح، ص: 401.

يعتمد في حكمه على القسوة القاسية لفرض سيطرته على الناس، وكان لا يبالي من أجل تدعيم سيطرته أن يرتكب كل أنواع الإجراءات الرادعة قتلاً وتعذيباً وحجزاً للممتلكات والأموال[1]، فقد كان ذا شخصية طاغية يحب الإمارة ويحب السيطرة ولقد أساء ابن زياد، فترك تصرفه الأهوج في قتل الحسين رضي الله عنه أثراً بالغاً في أيامه ولا نزال نعاني من نتائج قتله حتى اليوم[2]، وسيأتي بيان تفصيل ذلك بإذن الله عند الحديث عن مقتل الحسين رضي الله عنه. وفي سنة 55 هـ قدم أسلم بن زرعة الكلابي خراسان والياً عليها من قبل معاوية ابن أبي سفيان بدلاً من عبيد الله بن زياد والذي ندبه معاوية لولاية البصرة وظل أسلم في ولايته مدة تقارب السنة[3].

رابعاً: سعيد بن عثمان بن عفان (56هـ):

تروي المصادر التاريخية أن سعيداً بن عثمان بن عفان قد اصطحب معه إلى خراسان حوالي أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية في البصرة والكوفة كما كان من ضمنهم حوالي خمسين عابثاً وقاطعاً للطريق من أمثال مالك بن الرِّيب المازني التميمي، وهؤلاء تابوا ورجعوا إلى رشدهم وفضلوا الجهاد في سبيل الله[4] ومالك بن الريب هو القائل:

ألَمْ تَرَني بعت الضَّلالةَ بالهُدى وأصبحتُ في جيشِ ابنِ عفَّانَ غَازيا[5]

وقدم سعيد خراسان فقطع النهر إلى (سمرقند) وبلغ خاتون ملكة بخاري عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبيد الله بن زياد وأقبل أهل الصُّغد وكِش ونسف إلى سعيد في مائة ألف وعشرين ألفاً، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، فنكثت العهد، ولكن قسماً من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال، فأثّر انصرافهم في معنويات الآخرين واهتزّت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك، أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة بخاري فاتحاً[6]، وطلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها، وممن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لعرشها، وتخلّصت بذلك من أشدَّ أعدائها خطراً على عرشها وحاضرها، ومستقبلها، وحين تمَّ الصلح

(1) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 135.
(2) المصدر نفسه، ص: 137.
(3) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 139.
(4) خلافة معاوية للعقيلي ص، 140.
(5) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 354).
(6) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 82، تاريخ الطبري (6/ 224).

بين خاتون وسعيد، زارت خاتون سعيداً بمقرّه، فطلعت عليه في زينتها الملكية، وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فادّعى أهل بخارى أن القائد المسلم أعجب بجمالها أيّما أعجاب، وجرى ذكر إعجاب سعيد بها في الأغاني الشعبية التي لا يزال أهل بخارى يردّدونها ويتغنون بها حتى اليوم، ولكن هذا الإعجاب لا ذكر له في المصادر العربية الإسلامية المعتمدة، ومن الواضح أنه أقرب إلى خيال الأدباء والفنانين منه إلى حقائق المؤرخين. وغزا سعيد سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف ألّا يبرح أو يفتحها، وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشدّ قتالهم في اليوم الثالث حيث فُقئت عين سعيد، ولزم أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة ويقتل من فيه، فطلبوا الصلح، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومن شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين[1] وكان معه من الأمراء المهلب بن أبي صُفرة الأزدي وغيره، واستشهد معه يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب، وكان يُشبَّه بالنبي ﷺ[2]، وكان أخوه عبد الله بن عباس دفن بالطائف وأخوه معبد استشهد بأفريقية، وعبيد الله بالمدينة وكلهم من أب واحد وأم واحدة قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34].

هذا وانصرف سعيد بن عثمان إلى (تِرْمِذ) ففتحها صلحاً[3] وقد كان سعيد شاعراً ومن شعره في معاوية قوله:

ذكرتُ أميرَ المؤمنينَ وفضلَه ... فقلتُ جزاه اللهُ خيراً بما وَصَل
وقد سبقتْ مني إليه بوادرٌ ... من القول فيه آفةُ العقلِ والزَّلَل
فعادَ أميرُ المؤمنين بفَضلِه ... وقد كانَ فيه قَبلَ عودَتِهِ مِيَل
وقال: خراسانُ لك اليومَ طعمةٌ ... فجوزيَ أميرُ المؤمنين بما فَعَل
فلو كان عثمانُ الغداةَ مكانَهُ ... لما نالني من ملكِهِ فوقَ ما بَذَل[4]

وعزل معاوية سعيد عام 57هـ، فأخذ سعيد مالاً من خراج خُراسان، فوجّه معاوية من لقيه بـ«حلوان»[5] وأخذ المال منه، ومضى سعيد بالرهن الذين أخذهم من أبناء عظماء

(1) فتوح البلدان، ص: 401 - 402 قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 141.
(2) شذرات الذهب (1/ 61) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 142.
(3) فتوح البلدان، ص: 402، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 142.
(4) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 144.
(5) المصدر نفسه، ص: 143، 144.

(سمرقند) حتى ورد بهم المدينة النبوية، فدفع ثيابهم ومناطقهم إلى مواليه، وألبسهم جباب الصوف، وألزمهم السقي والعمل[1]، وألقاهم في أرض يعملون له فيها بالمساحي، فأغلقوا يوماً باب الحائط ووثبوا عليه فقتلوه ثم قتلوا أنفسهم[2]، فقال خالد بن عقبة بن أبي معيط الأموي[3]:

ألا إنّ خيرَ الناس نفساً ووالداً ... سعيدُ بن عثمانَ قتيلُ الأعاجم
فإن تكنِ الأيامُ أردت صروفُها ... سعيداً فهل حيٌّ منَ الناسِ سالم؟

وقال أيضاً يرثيه:

يا عينُ جودي بدمعٍ منكِ تهتانا ... وابكي سعيدَ بن عثمانَ بن عفانا

لم يف سعيد لأهل «سمرقند» بإعادة الرهن لهم، بل جاء بالغلمان معه إلى المدينة النبوية وجعل يستعملهم في النخيل والطين وهم أولاد الدهاقين وأرباب النِّعم، فلم يطيقوا ذلك العمل وسئموا عيشهم فوثبوا عليه في حائط له، وبذلك غدر بهم[4]، فكان هذا الغدر وبالاً عليه، إذ قدم حياته ثمناً لغدره[5]، لقد كان سعيد شهماً غيوراً يعتد بشخصيته، طموحاً، مُتْرَفاً، سخياً وكان من شخصيات قريش البارزة[6].

خامساً: فتح سلم بن زياد أخو عبيد الله بن زياد (57هـ):

عزل معاوية بن أبي سفيان سعيد بن عثمان بن عفان سنة سبع وخمسين الهجرية، وأُضيفت إلى ولاية عبيد الله بن زياد في رواية[7]، وفي رواية أخرى، أن معاوية بن أبي سفيان ولّى خراسان عبد الرحمن بن زياد، وكان شريفاً، فلم يصنع شيئاً في مجال الفتح، وكان ذلك في سنة 59هـ[8] ومات معاوية وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد.

ولما سار سلم إلى خراسان، كتب معه يزيد إلى أخيه عبيد الله بن زياد في العراق ينتخب له ستة آلاف فارس، وقيل: ألفي فارس، وكان سلم ينتخب الوجوه، فخرج معه عمران بن الفضيل البُرجُميّ، والمهلب بن أبي صفرة، وعبد الله بن خازم السُّلمي، وطلحة بن عبد الله بن

(1) فتوح البلدان، ص: 402 - 403.
(2) المصدر نفسه، ص: 403، قادة الفتح الإسلامي، ص: 142.
(3) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 143.
(4) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 143.
(5) المصدر نفسه، ص: 143.
(6) الكامل في التاريخ (2/ 514).
(7) النجوم الزاهرة (1/ 149)، قادة الفتح الإسلامي، ص: 148.
(8) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 148.

خلف الخزاعي وخلق كثير من رؤساء البصرة وأشرافهم، فأخذ سلم هؤلاء الفرسان معه من البصرة، وتجهز ثم سار إلى خراسان[1]، وبدأ سلم بغزو خوارزم، فصالحوه على أربعمائة درهم وحملوها إليه. وقطع سلم النهر (جيحون) ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان ابن أبي العاص الثقفي، وكانت أوّل امرأة عربية عُبر بها النهر، فأتى (سمرقند) فصالحه أهلها[2]، ووجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد، واستنجدت بجيرانها من الصُّغد، وأتراك الشمال، فجاء طرخون على جيش الصُّغد، كما جاء ملك الترك في عسكر كثيف، ولم تؤثر تلك الحشود الضخمة من القوات المعادية في معنويات المسلمين، فحاصروا بخارى دون أن يهجموا عليها، ليقفوا أولاً على تفاصيل قوات أعدائهم ومواضعها، وهي متربصة بهم في مواضع ليست بعيدة عن بخارى.

وأمر سلم المهلبَ بن أبي صفرة الأزدي أن يستطلع أحوال العدو، فاقترح المهلب أن يكلف غيره بهذه المهمة، وحجته أنه معروف المكانة بين قومه والمسلمين، وقد يفشي تغيبه عن معسكر المسلمين سرّ الواجب الذي أُلقي على عاتقه، وهذا الواجب ينبغي أن يبقى سرّاً مكتوماً حتى يتم إنجازه بسرية تامة وكتمان شديد وحذر بالغ، لأن إفشاءه يعرّض المسلمين لخطر جسيم، ولكنّ سلم بن زياد أصرّ على إيفاد المهلب دون غيره في هذا الواجب الحيوي الذي قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغي، وأرسل معه ابن عمه ورجلاً من كل لواء من ألوية المسلمين، واشترط المهلب على سلم ألا يبوح لأحد من الناس كائناً من كان بمهمته، ثم مضى إلى سبيله ليلاً مع جماعته الاستطلاعية، فكمن في موضع مستور، واستطلع قوات العدو دون أن يشعر العدو بموضعه المخفيّ المستور.

ويبدو أن قوم المهلب والمسلمين افتقدوا المهلب في صلاة الفجر من تلك الليلة التي تسلل بها المهلب إلى موضع قريب من العدو، فما كان تغيب مثله أن يخفى على أحد وهو ليس مجهول المكان والمكانة يملأ الأعين قدراً وجلالاً، فألحّوا على سلم بالسؤال عن المهلب وألحفوا عليه، فلم يستطع أن يكتم أمره وأخبرهم أنه أرسله في مهمة استطلاعية ليلاً، وفشا الخبر بسرعة خاطفة في العسكر، فأسرع جمع من المسلمين بالركوب وتوجّهوا صوب موضع المهلب المستور، فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو، وأبصرهم المهلب مقبلين نحوه يتسابقون بدون نظام ولا تنظيم فلامهم أشد اللوم على ما أقدموا عليه، لأنهم كشفوا موضع جماعته الاستطلاعية للعدو دون مسوّغ، فعرّضهم لخطر محدق أكيد، وأصبح موقف المهلب ومن معه من المسلمين في خطر داهم، فبذل المهلب قصارى جهده لمعالجة موقفه الخطير

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي، ص: 149.
(2) قادة الفتح الإسلامي، ص: 149، فتوح البلدان، ص: 149.

وتدارك ما يمكن تداركه، وأحصى المهلب المسلمين الذين التحقوا به متطوّعين، فكانوا تسعمائة من الفرسان المجاهدين، فقال لهم: والله لتندمُّن على ما فعلتم، وحدث ما توقعه المهلب، فما كاد ينظِّم المسلمين صفوفاً، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة فارس مجاهد، ولاذ الباقون منهم على قيد الحياة بالفرار، وأحيط بالمهلب ومن بقي معه من جماعته الاستطلاعية ذات العدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتاً راسخاً لا يتزعزع عن موضعه، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون عليهم من الفرار، وصاح المهلب بصوته الجهوريّ القوي مستغيثاً بالمسلمين، فسُمع صوته من معسكر المسلمين القريب، الذي كان على نصف فرسخ من موضعه المواجه للعدو، وبادر فوراً إلى نجدته من قومه الأزد، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون خفافاً لنجدته على عجل بقيادة سَلْم، ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة نكراء، حيث هربوا من ساحة المعركة مخلِّفين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كلّ فارس ألفين وأربعمائة درهم في رواية، وعشرة آلاف درهم في رواية أخرى، وطارد المسلمون الترك المنهزمين، فلم ينج منهم إلا الشريد، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصُّغدي ملك الصُّغد، وأعادت خاتون الصُّلح من جديد مع سلْم، فاستعاد فتح بخارى[1]، وبعث سَلْم وهو بالصّغد جيشاً من المسلمين إلى «خُجَنْدة» وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهزم المسلمون، فقال الأعشى:

ليت خيلي يوم الخُجَنْدة لهم تُهزَم ... وغودرتُ في المكرِّ سَلِيْبَا
تحضُر الطيرُ مصرعي وتروحتُ ... إلى الله في الدماء خضيبا[2]

وكان عمّال خراسان قبل سَلْم يغزون، فإذا دخل الشّتاء رجعوا إلى «مرو الشّاهجان»، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلي خُوارِزم، فيتعاقدون أن لا يغزو بعضهم بعضاً، ويتشاورون في أمورهم. فلما قدم سَلْم غزا فشتا في تلك السنة، فألحّ عليه المهلّب بن أبي صفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة، فوجّهه في ستة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيِّف وعشرين ألف درهم، وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عروضاً، فكان يأخذ الرأس والدّابة بنصف ثمنه، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف درهم[3]، وعاد سلم إلى (مَرْو) بعد جهاد هذه السنة الذي استمرّ سنتي إحدى وستين الهجرية واثنتين وستين الهجرية،

(1) تاريخ بخارى للنرشخي، ص: 65 - 67، نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 152.
(2) فتوح البلدان، ص: 581، الكامل في التاريخ (2/ 584).
(3) الكامل في التاريخ (2/584).

ويبدو أنه قطع النهر ثانية في سنة ثلاث وستين هجرية[1]، لأنه علم بأنّ الصُّغد قد جمعت له، فقاتلهم وقتل ملكهم[2].

ولكنه عاد مسرعاً إلى (مرو) ليعالج مشاكل المنطقة الداخلية، فقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم[3]، فقد مات يزيد بن معاوية سنة أربع ستين، فبويع بعده معاوية ابن يزيد بن معاوية فلم يمكث إلا ثلاثة أشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يوماً ثمّ مات[4]، وقيل غير ذلك، ولما بلغ سلم موت يزيد بن معاوية كتم ذلك، ولكنّ الخبر انتشر بين الناس في خُراسان انتشار النار في الهشيم، فمثل هذا الخبر يستحيل كتمانه مدة طويلة، ولما علم سلم بانتشار خبر موت يزيد بين الناس، أظهر موت يزيد وابنه معاوية، ودعا الناس إلى البيعة على الرضى حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثمّ نكثوا بعد شهرين، وكان سلم محسناً إليهم محبوباً فيهم، ولكن قسماً من القبائل العربية خلعوه عصبية وتعصباً وفتنة، فلم يجد أهل خُراسان أميراً قد حبهم مثل سَلْم بن زياد[5]، ولكن قائلهم قال: بئس ما ظنّ سَلْم، إن ظنَّ أنه يتأمر علينا في الجماعة والفتنة[6]، ووثب أهل خُراسان بعمالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، ووقعت الحرب[7]، ونشب الاقتتال بين القبائل العربية، وأصبحت خراسان مناطق، في كل منطقة قائد وأمير، وتساقطت القتلى بين المسلمين بالسيوف، وتوقف الفتح وتوجه سَلْم إلى عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة[8].

سادساً: فتوحات السند في عهد معاوية:

تمكن المسلمون في عهد معاوية ﷺ من بسط نفوذهم إلى ما وراء نهر السند، ففي سنة 44هـ غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بَنَّة[9]، ولاهور، وهما بين الملتان[10]، وكابل، وأما في مستهل سنة 45هـ، فقد أرسل والي البصرة عبد الله بن عامر: عبد الله بن سوّار العبيدي إلى ثغر السند على رأس حملة قوامها أربعة آلاف رجل، ولما وصل ابن سوّار إلى

(1) قادة الفتح الإسلامي، ص: 152.
(2) فتوح البلدان، ص: 582.
(3) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 152.
(4) الكامل في التاريخ (2/ 605).
(5) الكامل في التاريخ (2/ 622).
(6) فتوح البلدان، ص: 582.
(7) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 153.
(8) فتوح البلدان، ص: 582، قادة الفتح الإسلامي، ص: 154.
(9) بَنَّة: مدينة بكابل، ياقوت: ومعجم البلدان (2/ 500).
(10) المُلتان: مدينة من نواحي الهند قرب غزنة: أهلها مسلمون.

مدينة مكران، بقي هناك أربعة أشهر يعدّ نفسه وجنده للحملة المرتقبة. ثم تقدم وجماعته نحو بلاد القيقان[1]، وفتحها، وكانت هديته إلى معاوية ﷺ خيلاً قيقانية[2] سلّمها بنفسه إليه في الشام، فأصل البراذين القيقانية من نسل تلك الخيول[3].

وعلى أية حال، فلم يدم المقام لابن سوّار طويلاً في ثغر السند فقد قتلته جماعة من الترك هناك في سنة 47هـ[4]، وفي سنة 48هـ اختار زياد بن أبي سفيان سنان بن سلمة بن المُحَبَّق الهذلي ليكون والياً على الأقاليم المفتوحة من ثغر السند وما إن وصل سنان إلى هناك حتى تمكن من فتح مدينة مكران «عنوة» ومصَّرها وأقام بها وضبط البلاد[5]. ولكن سنان لم يمكث هناك سوى سنة أو سنتان ثم عزله زياد. وولى مكانه راشد بن عمرو الأزدي، فأتى مكران ثم تقدم في بلاد القيقان، فظفر، ثم اتجه نحو الميد، فقتل هناك[6]، وبعد ذلك تولّى عباد بن زياد بن أبي سفيان أمر سجستان، فقاد حملة توغل فيها في منطقة حوض نهر السند فنزل كِشْ، ثم سار إلى قُنْدُهار[7]: فقاتل أهلها فهزمهم، وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين[8]، وكان آخر الولاة الذين تولوا أمر الفتوحات في هذا الجزء هو المنذر بن الجارود العبدي أبو الأشعث، والذي وصل ثغر السند معيّناً عليه من قبل عبد الله بن زياد بن أبي سفيان والي البصرة سنة 62هـ، فقاد المنذر حملة ضد مدينة قُصدار[9]، وتمكن من فتحها[10].

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد في فتوحات معاوية ﷺ

أولاً: أثر الآيات والأحاديث في نفوس المجاهدين:

كان للآيات والأحاديث التي تتحدث عن فضل الجهاد أثرها في نفوس المجاهدين، فقد

(1) القيقان: بلاد قرب طبرستان معجم البلدان (4/ 423).
(2) فتوح البلدان، ص: 432.
(3) تاريخ خليفة، ص: 207، خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي، ص: 142.
(4) تاريخ خليفة، ص: 207، خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي، ص: 142.
(5) فتوح البلدان، ص: 432.
(6) المصدر نفسه، ص: 432.
(7) معجم البلدان (4/ 402).
(8) فتوح البلدان، ص: 433.
(9) معجم البلدان (4/ 353).
(10) فتوح البلدان، ص: 433، خلافة معاوية للعقيلي، ص: 143.

بين المولى ﷻ أن حركات المجاهدين كلها يثاب عليها، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: 120، 121].

وقد تعلموا أن الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: 19-22].

واعتقدوا أن الجهاد فوز على كل حال، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: 52]، وأن الشهيد لا تنقطع حياته بل هو حي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: 169-171]، وكانوا يشعرون بسمو هدفهم الذي يقاتلون من أجله، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 74-76].

وقد بين الرسول ﷺ للمسلمين فضل الجهاد فألهبت أحاديثه مشاعرهم وعواطفهم وفجرت طاقاتهم، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مؤمن يجاهد بنفسه وماله**»[1]، وقد بين رسول الله ﷺ درجات المجاهدين فقال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه**

(1) البخاري رقم (2786).

أوسط الجنة وأعلى الجنة»[1]. وقد وضح ﷺ فضل الشهداء وكرامتهم فقال: «**انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرّية ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل**»[2] وقال ﷺ: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة**»[3]. وغير ذلك من الأحاديث.

وقد تأثر المسلمون الأوائل ومن سار على نهجهم بهذه الآيات والأحاديث، فكان كبار الصحابة ﷺ يغزون وقد تقدم بهم العمر، فيشفق عليهم الناس وينصحونهم بالقعود عن الغزو، لأنهم معذورون فيجيبونهم أن سورة التوبة تأبى عليهم القعود ويخافون على أنفسهم من النفاق إذا ما تخلفوا عن الغزو[4].

كما كان للعلماء والفقهاء والزهاد دور كبير في تربية الناس على هذه الآيات والأحاديث، ومن هؤلاء العلماء: كبار الصحابة كأبي أيوب الأنصاري، وابن عمر، وغيرهم، ومن التابعين كأبي مسلم الخولاني، يرون أن الجهاد في سبيل الله ضرورة من ضرورات بقاء الأمة الإسلامية، فقاموا بهذه الفريضة في فتوحات بلاد الشام والشمال الأفريقي وخراسان وسجستان والسند، وترتب على قيامهم بهذه الفريضة ثمرات كثيرة منها: تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية، القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم، ظهور صدق الدعوة للناس الأمر الذي جعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً، فيزداد المسلمون بذلك عزّاً والكفار ذُلاً، وتوحدت صفوف المسلمين ضد أعدائهم وأسعدوا الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته[5].

ثانياً: من سنن الله في فتوحات معاوية:

يلاحظ الباحث في دراسته للفتوحات في عهد معاوية بعض سنن الله في المجتمعات والشعوب والدول ومن هذه السنن:

1 - سنة الله في الاتحاد والاجتماع:

كانت الفتنة التي أدت إلى استشهاد عثمان ﷺ أكبر معوق أصاب حركة الفتوحات بعد الردة أيام أبي بكر ﷺ، حيث أدى استشهاد عثمان ﷺ إلى توقف الجهاد، واتجاه سيوف المسلمين إلى بعضهم في فتنة كادت تعصف بالأمة الإسلامية لولا أن تداركتها رحمة الله -

(1) البخاري رقم (2790).
(2) مسلم (3/ 1497).
(3) البخاري رقم (2817).
(4) الجهاد في سبيل الله للقادري (1/ 145).
(5) الجهاد في سبيل الله (2/ 411 - 482).

سبحانه وتعالى - بصلح الحسن بن علي مع معاوية ﷺ، وقد امتلأت المصادر بالنصوص التي تبين أثر الفتنة في انحسار حركة الجهاد[1] ومن هذه الآثار:

- عن الحسن بن علي ﷺ أنه قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء وقطعت فيها الأرحام وقطعت السبل، وعُطلت الفروج - يعني الثغور[2].

- ما أخرجه أبو زرعة الدمشقي بإسناده قال: لما قتل عثمان، واختلف الناس، لم تكن للناس غازية، ولا صائفة، حتى اجتمعت الأمة على معاوية[3].

- قول أبي بكر المالكي: فوقعت الفتنة.. واستشهد عثمان ﷺ، وولّي بعده علي ﷺ، وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية ﷺ [4]، ولكن بعد الصلح وما ترتب عليه من الاتحاد والاجتماع عادت حركة الفتوحات إلى ما كانت عليه، وأصبحت في عهد معاوية على ثلاث جبهات كما مر معنا.

إن الاتحاد والاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله مقصد من مقاصد الشريعة، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله واستمرار حركة الفتوحات، فالأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جداً في إعزاز المسلمين، وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم[5]. فحركة الفتوحات بين الانطلاق والتوقف مرهون بتحقيق سنة الاتفاق والاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف والشقاق، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103].

2 - سنة الأخذ بالأسباب:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60] وقد قام معاوية ﷺ بالعمل بهذه الآية وحث ولاته على العمل بها، ويظهر أخذ معاوية ﷺ بسنة الأخذ بالأسباب في اهتمامه ببناء الأسطول البحري وتطويره، وتقوية الجيش، والقضاء على الفتن الداخلية، ودعم الثغور، وأماكن الرباط والتخطيط الاستراتيجي للدولة في سياستها الداخلية والخارجية، والتكتيك العسكري في نظام

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 310.
(2) الطبقات، تحقيق السُّلمي (1/ 331).
(3) مرويات خلافة معاوية، ص: 310.
(4) رياض النفوس (1/ 27).
(5) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص: 359.

المعسكرات ونظام الرباط والثغور، والصوائف والشواتي، وبناء الحصون، ونظام التعبئة، وتوطين القبائل لنشر الإسلام وتثبيت الفتوحات والتصدي لحركات التمرد، فبعدما زال خطر الهجوم العسكري من الفرس قام بتوطين عشرات الألوف من الأسر العربية في الجناح الشرقي من الدولة خاصة خراسان، وقد نجحت هذه السياسة وآتت ثمارها في هذا الجناح[1].

3 - سنة التدافع:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251] وقد تحققت هذه السنة في حركة الفتوحات عموماً، وسنة التدافع من أهم سنن الله تعالى في كونه وخلقه، وهي من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية، وقد استوعب المسلمون الأوائل هذه السنة وعملوا بها وعلموا: أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه وأعصاب ترتبط به. إنه يحتاج إلى جهد بشري، لأن هذه سنة الله في الحياة الدنيا وهي ماضية[2].

4 - سنة الابتلاء:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]. وقد وقع البلاء في حصار القسطنطينية وتعرض الكثير من المسلمين للقتل، وفي فتوحات الشمال الإفريقي، واستشهاد القادة كعقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار، وغيرهم، فهذه سنة الله في العقائد والدعوات فلا بد من الأذى في الأموال والأنفس ولا بد من صبر، واعتزام[3].

5 - سنة الله في الظلم والظالمين:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 100-102]. وسنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، وقد مارست الدولة الفارسية الظلم على رعاياها وتمردت على منهج الله، فمضت فيها سنة الله وسلط الله عليها المسلمين فأزالوها من الوجود[4]، وكذلك نفوذ الدولة البيزنطية من الشام ومصر، وتزعزع وجودها في الشمال الإفريقي، وما جاء عهد الوليد بن عبد الملك حتى زال نفوذها من الشمال الإفريقي كلياً.

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 119.
(2) لقاء المؤمنين، عدنان النحوي (2/ 117).
(3) فقه النصر والتمكين للصلّابيّ، ص: 456.
(4) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص: 119-121.

6 - سنة الله في المترفين:

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]. وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أي: متنعميها وجبّاريها وملوكها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكها، وإنما خص الله المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[1]، وقد مضت هذه السنة في زعماء الفرس وأئمتهم في بلاد فارس وزعماء الروم في الشام ومصر والشمال الإفريقي.

7 - سنة الله في الطغيان والطغاة:

قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: 14] والآية وعيد للعصاة مطلقاً، وقيل: وعيد للعصاة ووعيد لغيرهم[2]. وفي تفسير القرطبي: أي يرصد كل إنسان حتى يجازيه به[3].

وواضح من أقوال المفسرين في الآيات التي ذكرناها في الفقرة السابقة أن سنة الله في الطغاة إنزال العقاب بهم في الدنيا، فهي سنة ماضية لا تتخلف جرت على الطغاة السابقين وستجري على الحاضرين والقادمين، فلن يفلت منهم أحد من عقاب الله[4].

وسنة الله في الطغاة وما ينزله الله بهم من عقاب في الدنيا، إنما يعتبر بها من يخشى الله جلّ جلاله ويخاف عقابه ويعلم أن سنة الله قانون ثابت لا يحابي أحداً، قال تعالى في بيان المعتبرين بسنته في الطغاة - بعد أن ذكر ما حلّ بفرعون من سوء عقاب -: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: 25-26]، فهؤلاء الطغاة من زعماء الفرس وزعماء الروم في مصر والشام مضت فيهم سنة الله.

8 - سنة التدرج

خضعت الفتوحات الإسلامية لسنة التدرج، ويعتبر الحصار الأول والثاني للقسطنطينية مرحلة مبكرة لفتح القسطنطينية على عهد السلطان العثماني محمد الفاتح، فالأعمال التي قام بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية قبل محمد الفاتح ساهمت في عمل تراكمي توّج بفتح القسطنطينية في عهد العثمانيين.

(1) تفسير الألوسي (15/ 42).
(2) السنن الإلهية، ص: 193.
(3) تفسير القرطبي، نقلاً عن السنن الإلهية، ص: 193.
(4) السنن الإلهية، ص: 194.

9 - سنة الله في الذنوب والسيئات:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6].

وقد أهلك الله تعالى أمة الفرس بسبب ذنوبهم التي اقترفوها، وأزال ملك الروم من مصر والشام وليبيا بسببها، وفي هذه الآية حقيقة ثابتة وسنة مطردة: أن الذنوب والمعاصي تهلك أصحابها، وأن الله تعالى هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم[1]، وقد سلط الله أمة الإسلام على الفرس والروم عندما حققت شروط التمكين وعملت بسننه وأخذت بأسبابه وحققت أهدافه.

10 - سنة تغير النفوس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وقد قام الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعون بإحسان في فتوحات الشام ومصر والشمال الإفريقي وبلاد المشرق، بالعمل بهذه السنة الربانية مع الشعوب التي أرادت أن تدخل في دين الله. فشرعوا في تربية الناس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فغرسوا في نفوسهم العقائد الصحيحة والأفكار السليمة والأخلاق الرفيعة.

ثالثاً: التخطيط الإستراتيجي للفتوحات عند معاوية رضي الله عنه:

خضعت الفتوحات في عهد معاوية للتخطيط الدقيق والمحكم، فقد كانت سياسته في الفتوحات كالآتي:

1 - سياسته تجاه الروم:

فقد سلك الخطوات التالية:

أ - التركيز على عمليات الصوائف والشواتي، من أجل تحقيق عدة أهداف منها:

- استنزاف قوة الروم.

- انتزاع زمام المبادرة من الروم، وجعلهم في حالة دفاع مستمر[2].

- إرغام الروم على توزيع قواتهم بحيث لا يستطيعون القيام بهجمات حاسمة وقوية ضد الدولة الإسلامية[3].

(1) السنن الإلهية، ص: 210.

(2) فن الحرب الإسلامي، بسام العسلي (1/ 233).

(3) المصدر نفسه (1/ 233).

ب - مهاجمة الروم في عقر دارهم ومحاصرة عاصمتهم، وما يترتب على ذلك من إضعاف معنوياتهم، وقذف الرعب في قلوبهم.

جـ - تقليص النفوذ البحري للروم عن طريق فتح الجزر الواقعة في بحر الشام[1]، وما يترتب على ذلك من حرمان سفن الروم من قواعدها البحرية الهامة.

2 - سياسته في جبهة الشمال الإفريقي:

أ - أولى معاوية رضي الله عنه جبهة المغرب اهتماماً خاصاً تمثل بارتباط هذه الجبهة به شخصياً، حيث كان معاوية رضي الله عنه المرجع المباشر لقادة هذه الجبهة إلى سنة 47هـ، وهي السنة التي ضُمت فيها جبهة المغرب إلى والي مصر[2].

ب - عمل معاوية رضي الله عنه على إقامة قاعدة جهادية متقدمة في قلب بلاد المغرب، وقد قام عقبة ابن نافع ببناء القيروان لكي تكون عزاً للإسلام والمسلمين.

3 - سياسته في جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر:

أ - استعانة معاوية رضي الله عنه بفاتح سجستان وخراسان أيام عثمان رضي الله عنه، وهو عبد الله بن عامر رضي الله عنه وتكليفه بإعادة فتحها مرة أخرى.

ب - العمل على تثبيت الحكم الإسلامي ونشر دعوة الإسلام في هذه المنطقة عن طريق إسكان خمسين ألف من العرب بعيالهم في خراسان[3].

رابعاً: الشورى في إدارة حركة الفتوحات:

عند انتقال الخلافة إلى معاوية رضي الله عنه كان مجلس الشورى لديه يتألف من كبار أعيان عصره وولاته ومعاونيه الذين يتصفون بالبلاغة والسياسة وحسن التدبير في أمور الإدارة العسكرية، وكان من هؤلاء عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي كان مشهوراً بالصفات السابقة، مما جعل الخليفة معاوية يعتمد عليه كالوزير المدبر لدولته والمشير، ومنهم أيضاً زياد بن أبيه.

ولم تكن الوزارة في عهد بني أمية مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، وكان ذوو الآراء من مستشاري الخليفة يقومون مقام الوزراء، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مشيراً[4]، إضافة إلى ذلك كان الخليفة معاوية يعتمد في إدارته العسكرية على مشورة قادة وأمراء القبائل

(1) فن الحرب الإسلامي (1/ 211).
(2) ولاة مصر، ص: 61، النجوم الزاهرة (1/ 175).
(3) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 364، 365.
(4) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 280).

وخصوصاً التي بالشام، فقد كان يقربهم ويدني مجلسهم ويستشيرهم، وسار قادة معاوية بن أبي سفيان سيرته بمبدأ المشورة في إدارتهم العسكرية للمعارك الحربية[1].

خامساً: مركزية القيادة والإمداد في إدارة معاوية:

عندما انتقلت الخلافة إلى بني أمية أصبحت دمشق مقر الخلافة ومركز القيادة العليا للإدارة العسكرية، فكان الخليفة بها هو الذي يقرر السياسة الحربية، كما كان مسؤولاً عن الحرب والسلم، فكان التنظيم الإداري العام للجيش أمراً من الأمور المركزية التي يشرف الخليفة مباشرة عليها[2]، وذلك بالرغم من وجود عمال الولايات والأقاليم الذين كان لهم مطلق السلطات والتي منها: قيادة الجيوش بأنفسهم أو تعيين القادة المناسبين من قبلهم ووضع الخطط لهم وإمدادهم وتموينهم، ومن أمثلة هؤلاء: زياد بن أبيه وابنه عبيد الله[3].

فمن مركزية القيادة لإدارة معاوية بن أبي سفيان ﷺ في تعيين القادة: أنه كتب إلى واليه بالبصرة زياد بن أبيه يأمره أن يوجه إلى خراسان رجلاً يقوم بأمرها، فولى زياد الحكم بن عمرو الغفاري ﷺ، وكتب له عهده على خراسان وولاّه حربها وخراجها، وسار إليها بمن يريد الجهاد في سبيل الله من المتطوعة من أهل البصرة، إضافة إلى الجند النظامي أصحاب الديوان، فوضع لهم الأرزاق، وأعطاهم وقوّاهم وسار لما أمر به[4]. ومن مركزية القيادة العليا في إدارة معاوية العسكرية: تسيير الجيوش والإمدادات العسكرية لها، فنرى القائد علقمة بن يزيد الغطيفي كتب إليه قائلاً: إنك خلفتني بالإسكندرية وليس معي إلا اثنا عشر ألفاً ما يكاد بعضنا يرى بعض من القلة، فكتب إليه الخليفة معاوية: إني قد أمددتك بعبد الله بن مطيع في أربعة آلاف من أهل المدينة، وأمرت معن بن يزيد السلمي أن يكون بالرملة في أربعة آلاف ممكين بأعنة خيولهم، متى يبلغهم عنك فزع يعبروا إليك[5].

سادساً: الألوية والرايات:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية تعددت الألوية والرايات في إدارته العسكرية، كما تعددت ألوانها كاللون الأخضر والأحمر والأبيض بالرغم من اتخاذهم اللون الأبيض شعاراً ورمزاً لخلافتهم[6]، فمنذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ﷺ، لا نرى جيشاً يخرج ويسير

(1) الفتوح، ابن أعثم (1/ 340)، الإدارة العسكرية (1/ 280).
(2) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 314).
(3) المصدر نفسه (1/ 314).
(4) الفتوح لابن أعثم (2/ 318).
(5) فتوح مصر، ص: 192، الخطط للمقريزي (1/ 268).
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 368).

نحو العدو إلا ويعقد لقائده لواء أو راية تكون لهم شعاراً ورمزاً يسيرون خلفها ويذودون عنها، فنرى الواحد يصرع تلو الآخر وكل همه بقاءها منصوبة[1]، وكان القادة من الشجاعة والإقدام ما جعلهم يكونون أكفاء لحمل هذه الراية مثل عقبة بن نافع والحكم بن عمرو الغفاري وفضالة ابن عبيد الله، وقد جعل والي العراق من قبل الخليفة معاوية زياد بن أبيه خروج القبائل على الرايات، ويبدو أن الغاية من ذلك معرفة مدى جدية كل منها في القتال والتزامها بالأوامر[2].

سابعاً: اهتمامه بالعيون والبريد:

كان اهتمام معاوية ﷺ بأمر المخابرات وجمع المعلومات على الأعداء قديماً منذ كان أميراً على بلاد الشام، وتطور جهاز المخابرات لما تولى الخلافة وزاد اهتمامه به، ففي عهده أسر رجل من المسلمين بالقسطنطينية وأهين ببلاطهم فاستغاث: وا معاوياه! لقد أغفلت أمورنا وأضعتنا، فوصل الخبر إليه عن طريق جواسيسه المتواجدين بأرض الروم فقام بفدائه وبأسر من أهانه، وجعل المسلم يقتص منه بمثل ما أهانه وأن لا يزيد، وهذا دليل على مدى دقة نظام المخابرات في إدارته[3]. ولقد ذكرت القصة فيما مضى بالتفصيل.

كما قام الخليفة ﷺ بفرض رقابة دقيقة ومحكمة على أفراد الحاميات وأسرهم، وعين موظفاً في كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين حتى لا يتسلل عين للعدو إلى أرض المسلمين فيتعرّفوا على مواقع معسكراتهم ونقاط الضعف بها إن وجدت[4].

وفي إدارته أنشأ ديوان البريد واعتنى به عناية فائقة وذلك لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها بما في ذلك أخبار الثغور، ولم يكن للبريد ديوان قبل ذلك[5].

وأما علاقة صاحب البريد بالإدارة العسكرية فقد كان عبارة عن عين الخليفة الباصرة وأذنه السامعة ينقل إليه أخبار عماله وقادته وسائر رجال دولته، فكان له عيون يوافونه بكل جديد، كما كان البريد واسطة بين الولاة والخلفاء والقادة لنقل الأوامر العسكرية، وكان أصحاب البريد رقباء ومفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند في مختلف حالات القتال وفي كل الظروف والأوقات، ويخبرونه بحال المال والعطاء، وذلك أنه يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجري فيه ويكتب بما يقف عليه من الحال في وقته.

---

(1) تاريخ الطبري، نقلاً عن الإدارة العسكرية (1/ 368).
(2) تنظيمات الجيش للجنابي، ص: 227، الإدارة العسكرية (1/ 369).
(3) نهاية الإرب (6/ 158) الإدارة العسكرية (1/ 405).
(4) الجندية للدقدوقي، ص: 177.
(5) خطط الشام، محمد كرد (5/ 19).

إضافة إلى ذلك كان من واجبات صاحب البريد مساعدة الإدارة العسكرية في التموين والإمداد، وحفظ الطرق وصيانتها من الأعداء وانسلال الجواسيس في البر والبحر، وإليه كانت ترد كتب أصحاب الثغور وولاة الأطراف فيقوم بتوصيلها بوجه السرعة من اختصار للطرق واختيار المراكب لمعرفته بالطرق والمسالك إلى جميع النواحي، وكان الخليفة يجد عنده ما يحتاج إليه من المعرفة عند إنفاذ جيش وغيره وقت الحاجة، إلى ما هنالك من مهام قام البريد بتأديتها في الإدارة العسكرية[1].

على الجملة كان يقال للبريد: جناح المسلمين لما كان يطير به من الأخبار[2].

ثامناً: اهتمام معاوية بالحدود البرية للدولة:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية زاد الاهتمام والاعتناء بهذه التحصينات لحماية الحدود الإسلامية، وبخاصة إذا علمنا أن المؤسس الأول للدولة الأموية معاوية ﷺ قد قام بتولي حملات الصوائف والشواتي بنفسه حين كان قائداً ووالياً للخليفتين عمر وعثمان ﷺ، كما أسند إليه في خلافتيهما إنشاء وترميم بعض الحصون الدفاعية على الحدود الإسلامية كما سبق وأشرنا، مما جعله ملماً بهذه الثغور والتحصينات، فاستكمل ما بدأه حين استقرت بيده الخلافة، فقام ببناء وتحصين مرعش والحدث من ثغور الجزيرة وأسكنها الجند وكان يتعهدهما باستمرار[3].

واتخذ معاوية ﷺ لتحصين المدن الساحلية سياسة التهجير أو النواقل بنقل قوم من فرس وبعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها، ونقل من الزط وأساورة البصرة والكوفة وفرس وبعلبك وحمص إلى ثغر أنطاكية[4]، وولى القائد عبد العزيز بن حاتم الباهلي أرمينية وأذربيجان، فبنى مدينة دبيل[5]، وعمل عدة تحصينات دفاعية، كما بنى مدينة النشوي[6] ورمم مدينة برذعة[7]، وجدد بناء البيلقان[8]، إلى ما هنالك من تحصينات دفاعية قام بإنشائها[9].

---

(1) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 406).
(2) ثمار القلوب للثعالبي، ص: 241، الإدارة العسكرية (1/ 407).
(3) الإدارة العسكرية (2/ 473).
(4) كان ذلك في عام 42هـ، فتوح البلدان (1/ 139).
(5) مدينة بأرمينية تتاخم أران، وكان ثغراً.
(6) النشوي: مدينة بأذربيجان، معجم البلدان (5/ 286).
(7) برذعة: في أقصى أذربيجان، معجم البلدان (1/ 379).
(8) بيلقان: في أرمينية الكبرى قريبة من شروان، معجم البلدان (1/ 533).
(9) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 474).

كما قلد الوالي زياد بن أبيه القائد الربيع بن زياد الحارثي[1] ثغر خراسان، وأرسل معه من المصرين «الكوفة - البصرة» زهاء خمسين ألفاً من الجند بعيالاتهم، وأسكنهم ما دون النهر لحماية حدود الدولة الإسلامية هنالك[2]، ويظهر لنا اهتمام زياد بأمر الثغور في قوله لحاجبه: وليتك حجابتي وعزلتك عن أربع، وذكر منها: ورسول صاحب ثغر، فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة، فأدخله علي وإن كنت في لحافي[3]، وسأل زياد جلساءه عن أنعم الناس عيشاً؟ فأجابوه قائلين: أنت أيها الأمير فقال: فأين ما يرد علي من الثغور والخراج[4]. وهذا يبين مدى ما كان يلقاه زياد من عناء الثغور في إدارتها والإشراف على أمرها لحفظها وسدها. ومما أثر عن زياد أيضاً قوله: أربعة أعمال لا يليها إلا المسن الذي عض على ناجذه: الثغر والصائفة والشرط والقضاء[5].

وكان عمرو بن العاص ﷺ في إدارته لثغر مصر من قبل معاوية لا يحمل له من الخراج إلا الشيء اليسير، وينفق جل الأموال على التحصينات وعطاء الجند المرابطين بالثغر[6].

واهتم معاوية بأمر الصوائف والشواتي حيث كانت تخرج في كل عام في وقتها المحدد لها لأداء مهمتها المنوطة بها، وكان يختار لها كبار القواد والأمراء، وكانوا يتمنون إدارتها، ويعدون ذلك شرفاً وفخراً لهم، فمن ذلك قول الخليفة معاوية لابنه يزيد: يا بني! إن أمير المؤمنين قد بسط أملك فاذكر حاجتك، فطلب منه مطالب كان أولها قوله: يجعل أمير المؤمنين غزو الصائفة العام إليّ لأفتح أمري بتجهيز الجيوش في سبيل الله[7].

ومن أبرز الولاة والقادة الذين تولوا إدارة حملات الصوائف والشواتي في عهد معاوية لعدة مرات هم: سفيان بن عوف الغامدي الأزدي، ومالك بن هبيرة السكوني[8]، وكان أمير المؤمنين معاوية ﷺ قبل أن يعين القادة على هذه الحملات يجري لهم اختباراً لمعرفة مدى حصافة القائد الإدارية، ومن الذين كان يعتمد عليهم من قادته سفيان بن عوف الغامدي لخبرته الإدارية، وقد توفي وهو بالصائفة يدير أعمالها، وحين بلغ الخبر معاوية تأثر وكتب إلى أمصار وأجناد المسلمين ينعاه، وكان معاوية إذا رأى خللاً في الصوائف قال: واسفياناه ولا سفيان

(1) الإدارة العسكرية (2/ 474).
(2) كان ذلك سنة 51هـ، الإدارة العسكرية (2/ 474).
(3) الأوائل للعسكري، نقلاً عن الإدارة العسكرية (2/ 475).
(4) المحاسن والمساوئ، ص: 269.
(5) تاريخ اليعقوبي، الإدارة العسكرية (2/ 475).
(6) فتوح مصر، ص: 102.
(7) أنباء نجباء الأبناء، لابن ظفر المالكي، ص: 106، الإدارة العسكرية (2/ 476).
(8) الإدارة العسكرية (2/ 477)، الإصابة (3/ 237).

لي[1]! وكان معاوية ﷺ لا يقصر في اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية حدود وأراضي الدولة الإسلامية والدفاع عنها[2].

تاسعاً: اهتمام معاوية بالأسطول والحدود البحرية:

عندما قامت الدولة الأموية استكمل معاوية ﷺ ما بدأه في بناء القوة البحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية، بإقامة المراكب للغزو، إلى جانب ترتيب الحفظة في السواحل مما استولى عليه المسلمون من قواعد ومنشآت بحرية، وعندما خرجت الروم في عهده إلى السواحل الشامية أمر بجمع الصناع من النجارين، فجُمعوا ورتبهم في السواحل الشامية، وجعل مقر دار صناعة السفن في جند الأردن بعكا، وكما هو معلوم أن بلاد الشام غنية بالأخشاب التي تعتبر من أجزاء السفن الأساسية يومئذ[3]، كما أنشأ الخليفة معاوية أول دار صناعة للأساطيل لإنتاج السفن الحربية المختلفة بمصر سنة 54هـ في عهد واليها مسلمة بن مخلد الأنصاري، وكان مقرها بجزيرة الروضة، لذا عرفت باسم صناعة الروضة[4].

وكان قادة بحرية الخليفة معاوية ذوي خبرة وفن ببناء السفن الحربية، فقد كلف أحدهم بمهمة عسكرية نحو الروم وطلب منه قائلاً: أنشئ مركباً يكون له مجاديف في جوفه واستعمله للسفر إلى بلاد الروم[5]، أي: بعمل فتحات جانبية للمجاديف[6]، وبلغت السفن الحربية في عهد معاوية ﷺ نحواً من ألف وسبعمائة سفينة شراعية مشحونة بالرجال والسلاح وجميع العتاد، والمستلزمات القتالية البحرية[7].

وبذلك نجد أن معاوية ﷺ قد أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام ومصر لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد هذا الأسطول الإسلامي الذي يحافظ على الحدود البحرية ويغزو سواحل الروم الحين بعد الحين حتى يرتدع العدو ويحسب لهم ألف حساب[8].

وأخذ الأسطول الإسلامي في عهد معاوية في فتح الجزر الواقعة بالبحر المتوسط الواحدة تلو الأخرى، والتي منها جزيرة رودس[9]، بقيادة القائد جنادة بن أمية الزهراني

(1) تهذيب تاريخ دمشق (6/ 185) الإدارة العسكرية (2/ 477).
(2) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 478).
(3) المصدر نفسه (2/ 478).
(4) حسن المحاضرة (2/ 378) للسيوطي، الإدارة العسكرية (2/ 543).
(5) نهاية الإرب (6/ 186).
(6) الإدارة العسكرية (2، 544).
(7) خطط الشام (5/ 37) محمد كرد علي.
(8) الحدود الإسلامية لبيزنطة (1/ 237) فتحي عثمان.
(9) رودس: جزيرة ببلاد الروم مقابل الإسكندرية.

الأزدي[1]، حيث فتحها - كما مر معنا - عنوة، وكانت غيضة في البحر وهي من أخصب الجزائر بالمنطقة، وأنزلها قوماً من المسلمين بأمر الإدارة العليا المركزية، واتخذ بها حصناً وناطوراً يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، وكان المسلمون بها على جزر من الروم، وكان الخليفة معاوية يعاقب بين الجند فيها، ولم يجمرهم، وأدر عليهم الأرزاق والعطاء، وكان الجند المقيمون بها أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم، وقد خافهم العدو[2].

واستمر في فتح الجزر وشحنها بالجند المرابطين وأصبحت قواعد بحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية[3].

وأخذت حملات الصوائف والشواتي البحرية تجوب البحر وتمخر في عبابه في عهد معاوية ﷺ، وتسير جنباً مع جنب مع شقيقتها الحملات البرية، حيث كانت تخرج من مصر والشام لتحمي سواحل المنطقة البحرية، وتولى قيادتها كبار القادة المشهورين كالقائد يزيد بن شجرة الرهاوي، وموسى بن نصير، وبسر بن أبي أرطأة العامري، وجنادة بن أمية الزهراني، وعقبة بن عامر وغيرهم من القادة، وسار خلفاء بني أمية من بعد الخليفة معاوية على سنته، وأصبح الأسطول الإسلامي في نمو مطرد، وأكثروا من إنشاء سفنه، وتفننوا في إتقانه وجهزوه بالأدوات والمعدات الملاحية والقتالية، ورتبوا عليه الجند والقواد، وزودوه بالتموين اللازم والأرزاق، وظلت صوائفه وشواتيه تقلق الروم في كل عام وتهدد سواحلهم وحدودهم البحرية[4].

عاشراً: الاهتمام بديوان الجند والعطاء:

استمر ديوان الجند في أداء مهامه المناطة به، وحدث به تطور بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة الدولة الإسلامية، فقد أصبح ديوان الجند مؤسسة كبيرة حظيت باهتمام الخلفاء وولاتهم، ومر بعدة مراحل تطويرية خلال هذه الفترة، فعندما تولى معاوية ﷺ الخلافة تقاعس بعض الجند عن الحرب في بداية إدارته العسكرية إثر الفتن والصراعات الداخلية، فتمكن بحسن إدارته ودهائه بالإغداق عليهم في العطاء حتى تمكن مرة أخرى من إلزامهم مرة أخرى بالجندية وتأليف القلوب[5]، وقرب إليه زعماء القبائل.

---

(1) الاستيعاب (1/ 243)، الأعلام للزركلي (2/ 140).
(2) النجوم الزاهرة (1/ 144) الإدارة العسكرية (2/ 545).
(3) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 545).
(4) المصدر نفسه (2/ 546).
(5) المصدر نفسه (2/ 643).

وقد بلغ عدد الجند النظامي الذين يستلمون العطاء في بداية العصر الأموي نحواً من ثمانين ألف جندي بالبصرة، وستين ألفاً بالكوفة، وبمصر أربعون ألفاً، وبالشام نحواً من ذلك، هذا سوى من في باقي الأقاليم الأخرى من جند كفارس وما وراء النهر وغيرهما من الأقاليم وأمصار الدولة الإسلامية[1]، كما كان بالكوفة من أبناء العجم زهاء عشرين ألف رجل فرض لهم وكانوا يسمون الحمراء[2]، وبالبصرة زهاء ألفي رجل من سبي بخاري كلهم جيد الرمي بالنشاب، فقد ألحقهم الخليفة معاوية بالخدمة العسكرية وفرض لهم العطاء، وقد ولي كتابة الجند في إدارة الخليفة معاوية المركزية بدمشق عمرو بن سعيد بن العاص، هذا بالإضافة إلى دواوين الجند المحلية بالأقاليم الإسلامية المحلية الأخرى التي تتحمل مهام الإدارة العسكرية المحلية[3].

وظل دور أمر العرفاء والنقباء سائراً ومستمراً كما كان في السابق، وذلك لاعتماد الإدارة عليهم في الشئون العسكرية والمالية وبخاصة في توزيع العطاء على الجند، فقد كان الخليفة معاوية يدفع إلى العرفاء العطاء، وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها إليهم[4]، هذا مع ما يقومون به من التعرف على أحوال الجند وأخبارهم ورفع التقارير عنهم للإدارة العليا[5].

وقد طور زياد الهيكل التنظيمي العسكري للعرفاء، فجعل الناس في البصرة أخماساً، وجعل على كل خمس رجلاً كما جعل في الكوفة أرباعاً على قيادة عشرة جنود في القتال، بل أصبحوا مسؤولين عن النواحي الأمنية ومثيري الشغب والفتن والقلاقل داخل قبائلهم ومعسكراتهم، فكانوا حلقة الاتصال في الإدارة العسكرية بين القبائل العربية في الأمصار الإسلامية وبين السلطات الإدارية للدولة فيما يختص بتثبيت أسماء الجند في الدواوين وتوزيع العطاء عليهم واستدعائهم عند الحاجة، وقد حل أولئك العرفاء في القوة والنفوذ محل رؤساء القبائل والعشائر، وكان اختيارهم يتم من بين ذوي النفوذ ليستطيعوا أداء واجباتهم تجاه الإدارة العسكرية[6] ومثال على ذلك ما قام به زياد حيث خطب في أهل البصرة وهددهم بقطع العطاء إذا لم يكفوه الخوارج حيث قال: يا أهل البصرة والله لتكفني هؤلاء أو لأبدأنّ بكم،

(1) فتوح البلدان، ص: 102، الإدارة العسكرية (2/ 644).
(2) الأخبار الطوال، ص: 228، نقلاً عن الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 644).
(3) التراتيب الإدارية (1/ 229)، الإدارة العسكرية (2/ 644).
(4) نسب قريش، ص: 154، الإدارة العسكرية (2/ 645).
(5) خطط الشام (5/ 7).
(6) تنظيمات الجيش، ص: 223، الإدارة العسكرية (2/ 646).

والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوهم[1]. كما استخدمت الزيادة في العطاء للقادة والجند المتجاوبين والمنفذين للأوامر تشجيعاً وحثاً لهم على المضي قدماً في مهامهم ومناصبهم العسكرية المسؤولين عنها[2]، كما فعل معاوية مع أشراف أهل الشام.

حادي عشر: الأثر العلمي والاقتصادي الاجتماعي للفتوحات في عهد معاوية ﷺ:

ومن الظواهر العلمية التي زادت ازدهاراً في عهد معاوية طائفة القصاص، ، وقد كانوا ينتشرون بين الجند كالقراء يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ويلقون عليهم الشعر الحماسي فتجيش له همم العسكر فيسارعون للقتال، وقد كان الخطباء والوعاظ يقومون بنفس المهمة كما يقوم بها القراء والقصاص والشعراء لينشروا في الجند روح الفداء ويرفعوا من روحهم المعنوية القتالية[3].

وسلك الخليفة معاوية في وصاياه وتوجيهاته العلمية للأمراء والقادة والجند على منوال من سبقه من الخلفاء الراشدين ﷺ فعندما عين عبيد الله بن زياد على ثغر خراسان كان من نماذج وصاياه قوله: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئاً[4]... وقد سبق الحديث عن وصيته لعبيد الله.

ومن الآثار العلمية للحضارة الإسلامية في عهد معاوية أنه حينما فتح جزيرة رودس كان ممن اشترك في فتحها مجاهد بن جبر المقرئ، فكان مقيماً بها يقرئ الناس القرآن، ويفقههم في الدين في المسجد الذي بني فيها أثناء الفتح، وهذا أنموذج ومثال من ألوف النماذج والأمثلة، حيث إن هذا الأثر العلمي لا يقتصر على جزيرة رودس، بل شمل كافة الأمصار والشتوب الإسلامية[5].

ومن الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفتوحات أن والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ﷺ وغيره من الولاة في عهد معاوية ﷺ كانوا يبعثون إليه بأموال الخراج بعد أن يستقطعوا منها ما ينفق على الأراضي الزراعية بمصر لاستصلاحها من الخلجان والقناطر والجسور، وكانوا يحملون القمح إلى الحجاز لتفريقه وتوزيعه على سكان الحرمين الشريفين،

(1) تاريخ الطبري، نقلاً عن الإدارة العسكرية (2/ 646).
(2) المحاسن والمساوئ، ص: 464، الإدارة العسكرية (2/ 467).
(3) الفن الحربي، ص: 117، نقلاً عن الإدرة العسكرية (2/ 718).
(4) تاريخ الطبري (6/ 213).
(5) الإدارة العسكرية (2/ 719).

كمعونة لهم[1]، وكان بالجزيرة مكان الروضة قبل أن تبنى بها دار صناعة السفن في عهد معاوية خمسمائة عامل مستعد لأي حريق يكون في البلاد، أو هدم للإعانة في الكوارث وتقديم الخدمات الاجتماعية لأهل المنطقة[2].

ومن التكافل الاجتماعي في عهد معاوية مراعاته لأبناء الشهداء في إدارته ورعاية شؤونهم والفرض لهم[3]، فقد كان يقول لجلسائه: يا هؤلاء، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم على من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول افرضوا لولده[4].

وعندما أذن معاوية ﷺ لعبد الله بن صفوان بن أمية بالدخول عليه والمثول بين يديه طلب من معاوية أن يفرض للمنقطعين من ديوان العطاء، كما ذكّره بأن لا يغفل عن قواعد قريش والبر إليهم، وأن يقدم لهم الخدمات الاقتصادية والاجتماعية التي تكفل لهم الحياة الرغدة[5].

ومن الآثار الحضارية للفتوحات في النواحي الاقتصادية والاجتماعية: استمرارية معاوية في توطين الجند بالثغور، وإقطاعهم القطائع والأراضي والمساكن بها، وشقه للأنهار وجلبه للمياه. فقد أمر عسكره المقيم بجزيرة رودس بأن يزرعوا ويتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها[6].

ثاني عشر: كرامات للمجاهدين في عهد معاوية ﷺ:

حدثت كرامات للمجاهدين في عهد معاوية ﷺ منها: ما كان لأبي مسلم الخولاني والتي مرّ ذكرها، وما حدث لعقبة رحمهما الله، حينما نادى الوحوش والدواب وطلب منها الرحيل، فرحلت بإذن الله تعالى، حيث قال: فارحلوا عنّا فإنّا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناه، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجِب، هو أن السباع تخرج من الشَّعْراء[7]، وهي تحمل أشبالها سمعاً وطاعة، والذئب يحمل جرْوَه، والحية تحمل أولادها. ونادى في

(1) فتوح مصر، ص: 102، حسن المحاضرة (1/ 151).
(2) حسن المحاضرة (2/ 378)، الإدارة العسكرية (2/ 773).
(3) مروج الذهب (3/ 39، 40) الإدارة العسكرية (2/ 774).
(4) مروج الذهب (3/ 39، 40) الإدارة العسكرية (2/ 774).
(5) نسب قريش، ص: 389، الإدارة العسكرية (2/ 774).
(6) الفتوح لابن أعثم (1/ 354) الإدارة العسكرية (2/ 775).
(7) أي من الشجر.

الناس: كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها، فخرج ما فيها من الوحوش والسباع والهوامّ والناس ينظرون إليها، حتى أوجعهم حرُّ الشمس، فلمَّا لم يروا منها شيئاً، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر.

فأقام أهل أفريقية - بالقيروان - بعد ذلك أربعين عاماً لا يرون بها حيَّة، ولا عقرباً، ولا سَبُعاً: فاختط عقبة أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختَّطه، ولم يُحدث فيه بناء. وكان يصلي فيه وهو كذلك، فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعون قِبلتهم على قبلة هذا المسجد، فأجهد نفسك في تقويمها، فأقاموا أيّاماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس، فلمَّا رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً، فدعا الله ﷻ أن يُفرَج عنه، فأتاه آت في منامه فقال له: «إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك، واجعله على عُنُقك. فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك، فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به»، فاستيقظ من منامه وهو جزع، فتوضأ للصلاة، وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشراف الناس، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أنَّ الأمر من عند الله، فأخذ اللواء فوضعه على عُنُقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب، فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: هذا محرابكم. فاقتدى به سائر مساجد المدينة، ثم أخذ الناس إليها المطايا من كل أُفق وعظم قدرها... وكان عقبة خير والٍ وخير أمير، مستجاب الدعوة[1].

وفي هذه القصة عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يريد بهم نصر الإسلام ونشره في الأرض، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع في قلوبها الخوف منه، وقدَّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك وقد رأى ذلك قبيل كبير من البربر فأسلموا، كما ذكر ابن الأثير في روايته[2].

هذا وقد حمل بعض الباحثين هذا الخبر على أنه من الأساطير التي نسجها الرواة حول عقبة، وعللوا هذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج الجيش الإسلامي فحملت

(1) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب (1/ 19 - 21) الكامل في التاريخ (2/ 484) فتوح مصر، ص: 133، والقصة صحيحة الإسناد.

(2) فتوح مصر، ص: 133، التاريخ الإسلامي (13/ 249).

أولادها وولَّت هاربة، وهذا التأويل من عجائب بعض الباحثين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردِّ ما لا يؤمن به العقل المجرد، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة في حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذي اعتمدوه لا ينسجم مع العقل السليم، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفزع تأوي إلى حجورها الآمنة لتستخفي بها ولا تلجأ إلى الهرب حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادي وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك ما يدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذي حملهم على الدخول في الإسلام من أجل ذلك، ولم يكن في ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة. وقد جاء في إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثني زياد بن العجلان: إن أهل أفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت[1].

وعبرة أخرى في تلك الرؤيا التي رآها عقبة بن نافع في أمر تحديد القبلة وما تلا ذلك من سماعه التكبير الذي لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولي الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التي تظهر فيها الكرامات على أيدي أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة، فاستجاب الله تعالى دعاءه في تفريج همه وهموم المسلمين في هذا الأمر[2].

وأهل السنة والجماعة يثبتون الكرامات للصالحين: فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما أمر الله به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ويجعل لهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أوليائه كراماتهم لحاجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ[3]. ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوي إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة[4]. ومن عقيدة أهل السُّنة

(1) فتوح مصر، ص: 133، التاريخ الإسلامي (13/ 249).
(2) التاريخ الإسلامي (13/ 249).
(3) مجموع الفتاوى (11/ 274).

والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء[1].

ثالث عشر: قسمة الحكم بن عمرو الغفاري للغنائم في غزو جبل الأشل بخراسان:

عن عبد الرحمٰن بن صبح، قال: كنت مع الحكم بن عمرو بخراسان، فكتب زياد إلى عمرو: إن أهل جبل الأشل سلاحهم اللبود[2]، وآنيتهم الذهب[3]، فغزاهم حتى تواسطوا، فأخذوا بالشعاب والطرق، فأحدقوا به ، فعيَّ[4] بالأمر، فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أخذ عظيماً من عظمائهم، فقال له: اختر بين أن أقتلك، وبين أن تخرجنا من هذا المضيق، قال له: أوقد النار حيال الطريق لتسلكوه فإنهم يستجمعون لكم، ويعرون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى غيره فإنهم لا يدركونك حتى تخرج منه، ففعلوا ذلك، فنجا وغنموا غنيمة عظيمة[5].

وعن عبد الرحمٰن بن صبح قال: كتب إليه زياد: والله لئن بقيت لك لأقطعن منك طابقاً سحتاً[6]، وذلك أن زياداً كتب إليه لما ورد بالخبر عليه بما غنم: إن أمير المؤمنين كتب إلي أن اصطفي له صفراء وبيضاء[7]،والروائع[8]، فلا تحركن شيئاً حتى تخرج ذلك، فكتب إليه الحكم: أما بعد، فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إليَّ أن أصطفي له كل صفراء وبيضاء والروائع، ولا تحركن شيئاً، فإن كتاب الله ﷻ قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السمٰوات والأرض رتقاً[9] على عبد اتقى الله ﷻ جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجاً، وقال للناس: اغدوا على غنائمكم، فغدا الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم، قال: فقال الحكم: اللّهم إن كان لي عندك خير فاقبضني، فمات بخراسان بمرو[10].

إن خبر قسمة الحكم بن عمرو الغفاري ﷺ الغنائم بين أفراد جيشه ذكره ابن عبد

---

(1) مجموع الفتاوى (11/ 283).
(2) الانحرافات العقدية والعلمية (1/ 508).
(3) اللبود : هو الالتصاق بالأرض : أي يكمنون لعدوهم.
(4) وهذا دلالة على غناهم وثراهم.
(5) عيَّ، وعي : عجز، القاموس المحيط 1697.
(6) الكامل في التاريخ (2/ 476).
(7) لأقطعن منك طابقاً سحتاً : أي لأستأصلن ما خبث من كسبك.
(8) الصفراء والبيضاء: هما الذهب والفضة.
(9) الروائع: المقصود بها في هذا المقام: ما أعجبك وسرك من الغنائم.
(10) الرتق: ضد الفتق، وهو الالتحام، لسان العرب (10/ 114).
(11) تاريخ الطبري (6/ 167).

البر[1]، وابن الجوزي[2]، وابن الأثير[3]، وابن كثير[4]، وتتفق هذه المصادر حول طلب معاوية ﷺ اصطفاء الذهب والفضة وعدم قسمتها بين الجيش - لكنها لم تورد هذا الخبر بأسانيد صحيحة - وزاد ابن كثير أن معاوية ﷺ طلب أن يرسل الذهب والفضة إلى بيت المال[5]، وهنا يجدر التذكير بأن مصارف الغنيمة في الإسلام قد بينها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: 41]. وهذا يعني أن أربعة أخماس الغنيمة يقسم بين الجيش، ويبقى خمس الغنيمة فيقسم كما ورد في الآية السابقة وهذا الحكم لا يخفى على معاوية ﷺ، كما أن دين معاوية وعدالته تمنعه من رد حكم الله سبحانه وتعالى[6].

وبالرجوع إلى رواية الطبري نلاحظ أن الحكم بن عمرو الغفاري ﷺ لم يبادر إلى قسمة الغنائم بين الجيش على الفور - مع وضوح حكم الشرع في ذلك - بل دارت بينه وبين زياد مراسلات في شأن الغنائم، وهذا التأخير في قسمة الغنائم يقودنا إلى عدة احتمالات يمكن من خلالها إزالة الغموض الوارد في الرواية وهذه الاحتمالات هي:

1 - رغبة معاوية ﷺ في أن يكون خمس الغنيمة - الذي يتولى إمام المسلمين قسمته - من الذهب والفضة.

2 - رغبة معاوية ﷺ في حمل ما غنم المسلمون من ذهب وفضة قبل تخميسه وقسمته إلى الهند وبيعه هناك[7] بقيمة مرتفعة ثم يخمس ثمنه بعد ذلك، وفي ذلك خير للجميع[8].

3 - وجود نقصٍ طارئ في بيت مال المسلمين، فأراد معاوية ﷺ أن يقترض ما غنمه جيش الحكم ﷺ إلى أجل معلوم، وتأخير قسمة الغنائم بين الجيش إلى وقت لاحق[9].

ومن الدروس المهمة - إن ثبتت الرواية - التزام الحكم بن عمرو الغفاري بمبدأ: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وتمسكه بأداء الأمانة في قسمة الغنائم، ولم يغل منها شيئاً

(1) الاستيعاب (1/ 357).
(2) المنتظم (5/ 230).
(3) الكامل في التاريخ (2/ 476).
(4) البداية والنهاية (11/ 217).
(5) البداية والنهاية (11/ 217).
(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 351، 352، هذه الفقرة كلها من هذا الكتاب القيم.
(7) ذكر الدكتور خالد الغيث حفظه الله مبحث مهم في مسألة الغنائم والحكم بن عمرو الغفاري فنقلته منه. انظر: مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 352.
(8) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 352.
(9) المصدر نفسه، ص: 352.

ووزعها على العسكر بعد أن عزل الخمس[1].

هذه أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد معاوية.

رابع عشر: استشهاد صلة بن أشيم وابنه بسجستان عام 62هـ:

صلة بن أشيم هو الزاهد، العابد، القدوة، أبو الصهباء العدويُّ البصري، زوج العالمة معاذة العدوية، وكان صلة له مواقف في المجتمع الإسلامي مؤثرة ومن هذه المواقف: عن ثابت قال: جاء رجل إلى صلة بنعي أخيه، فقال له: ادن فكل، فقد نُعي إليَّ أخي منذ حين، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30].

وكان صلة له كرامات منها: عن حمّاد بن جعفر بن زياد أنّ أباه أخبره، قال: خرجنا في غزاة إلى كابل، وفي الجيش صلة، فنزلوا فقلت: لأرمُقَنَّ عمله، فصلّى ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، ثم وثب، فدخل غَيْضَةً، فدخلتُ فتوضَّأ وصلّى، ثم جاء أسد حتى دنا منه، فصعدت شجرة، أفتراه التفت إليه حتى سجد؟ فقلت: الآن يفترسه فلا شيء، فجلس ثم سلَّم فقال: يا سبع اطلب الرِّزق بمكان آخر، فولّى وإن له زئيراً أقول: تصدّع منه الجبل، فلمّا كان الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللَّهم إني أسألك أن تُجيرني من النار، أو مثلي يَجتَرِئُ أن يسألك الجنَّة[2].

وعن العلاء بن هلال، أن رجلاً قال لصلة: يا أبا الصهباء رأيت أني أعطيت شهادة، وأعطيت شهادتين، فقال: تستشهد وأنا وابني، فلما كان يوم يزيد بن زياد، لقيتهم الترك بسجستان، فانهزموا. وقال صلة: يا بُنيَّ ارجع إلى أمك. قال: يا أبَة، تريد الخير لنفسك، وتأمرني بالرجوع! قال: فتقدَّمْ، فتقدَّم، فقاتل حتى أصيب، فرمى صلةُ عن جسده، وكان رامياً، حتى تفرَّقوا عنه، وأقبل حتى قام عليه، فدعا له، ثم قاتل حتى قُتل[3]. وعن حمّاد بن سلمة: أخبرنا ثابت أنّ صلة كان في الغزو، ومعه ابنه، فقال: أي بني، تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل، فقاتل، حتى قُتل، ثم تقدَّم صلة فقتل، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة، فقالت: مرحباً إن كنتنّ جئتنَّ لتُهنِّئنني، وإن كنتنَّ جئتُنَّ لغير ذلك فارجعنَّ[4]. وكانت الملحمة التي استشهد فيها سنة 62هـ[5].

---

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 352.

(2) سير أعلام النبلاء (3/ 499).

(3) سير أعلام النبلاء (3/ 500) رجالة ثقات.

(4) طبقات ابن سعد (7/ 137)، سير أعلام النبلاء (3/ 498).

(5) سير أعلام النبلاء (3/ 500).

المبحث الخامس
ولاية العهد ووفاة معاوية ﷺ

أولاً: بداية التفكير ببيعة يزيد:

يُحمل كثير من الباحثين، المغيرة بن شعبة، المسؤولية عن بيعة يزيد بن معاوية، وذلك باعتباره العقل المدبر، وصاحب الفكرة الأولى، حين عرض على معاوية بأن يتولى يزيد الخلافة من بعده، وتكفل بالدعوة ليزيد وتهيئة أهل الكوفة لتقبل خبر اختيار يزيد لولاية العهد، وكل من اتهم المغيرة بن شعبة، كان حجته في ذلك تلك الرواية التي أوردتها بعض المصادر القديمة ومفادها: أن المغيرة بن شعبة ﷺ دخل على معاوية واستعفاه من ولاية الكوفة فأعفاه، وأراد معاوية أن يولي بدلاً منه سعيد بن العاص، فبلغ ذلك أحد الموالين للمغيرة، وتأثر المغيرة عند ذلك، وتمنى العودة للإمارة، فقام فدخل على يزيد وعرّض له بالبيعة، فأخبر يزيد والده بما قال له المغيرة، فاستدعى معاوية المغيرة بن شعبة وأمره بالرجوع والياً مرة أخرى على الكوفة وأن يعمل في بيعة يزيد[1].

وأسانيد هذه الرواية ضعيفة، فسند هذه الرواية لا يشجع على قبولها أو الاستئناس بها بأي حال من الأحوال، كما أن المغيرة ﷺ صحابي جليل تمّ التعريف به في موضعه من هذا الكتاب وقد توفي عام 50هـ[2] قبل ظهور فكرة ولاية العهد عند معاوية، حيث بدأت هذه الفكرة في الظهور في عهد زياد بن أبيه على العراق، وقد صرّح الطبري بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة 56هـ[3]، فلماذا تأخر كل هذه السنين إذا كان المغيرة قد شرع في التمهيد لهذه الفكرة قبل موته[4]؟!.

ثانياً: الخطوات التي اتبعها معاوية لبيعة يزيد:

1 - المشاورات:

لم نعثر في المصادر التاريخية على تحديد دقيق لتلك الفترة التي بدأ فيها معاوية ﷺ يفكر تفكيراً جدياً في تولية ولده يزيد من بعده خليفة المسلمين. ولكنه بالتأكيد لم يفكر إلا بعد سنة

(1) الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا، ص: 121 إسناد ضعيف، تاريخ الطبري (6/ 220) إسناده ضعيف جداً، تاريخ الذهبي حوادث (61 - 80هـ)، ص: 272 إسناده ضعيف جداً.

(2) تاريخ الطبري (6/ 150).

(3) تاريخ الطبري (6/ 219) انظر: مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص: 84 إلى 87.

(4) مواقف المعارضة في خلافة، ص: 87.

خمسين من الهجرة، وذلك بعد أن خلت الساحة من وجود الصحابة الكبار المبشرين بالجنة من أمثال: سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن يزيد بن عمرو، وبعد وفاة الحسن بن علي ﷺ جميعاً، وبعد أن عرف يزيد عند قيادته لجيش المسلمين الذي حاصر القسطنطينية، وبعدها أصبح معاوية يهيئ الأمور لترشيح يزيد للخلافة.

وكان من الطبيعي أن يستشير زياد بن أبيه بعدما أصبح أخاً له، وصار يقال له: زياد بن أبي سفيان، وولاه العراق، ولنسمع إلى رواية الطبري لهذه الاستشارة، وماذا صنع زياد[1]، قال الطبري: لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد، كتب إلى زياد يستشيره، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النميري، فقال إن لكل مستشير ثقة، ولكل سر مستودع، وإن الناس قد أبدعت[2] بهم خصلتان: إذاعة السر، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضع السر إلا أحد رجلين: رجل آخرة يرجو ثواباً، ورجل دنيا له شرف في نفسه، وعقل يصون حسبه، وقد عجمتهما[3] منك، فأحمدت الذي قبلك. وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الكتب[4]: إن أمير المؤمنين كتب إليّ يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوّف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم، ويستشيرني. وعلاقة أمر الإسلام، وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلة[5]، وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فالق أمير المؤمنين مؤدياً عني، فأخبره عن فعلات يزيد، فقال له: رويدك بالأمر، فأقمن بأن يتم لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركاً في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفَوْت. فقال عبيد له: أفلا غير هذا؟ قال: ما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقّت إليه ابنه، وألقى أنا يزيد سراً من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته، وأنك تخوّفُ خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنك ترى له ترك ما يُنقَمُ عليه، فيتحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس ويسهل لك ما تريد، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة. فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص على بركة الله، فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغَشّ، وأبعد بك إن شاء الله من الخطإ قال: أتقول بما ترى، ويقضي الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذاكره ذلك. وكاتب زياد إلى معاوية يأمره[6]،بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع[7].

---

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 189).

(2) أي: أضربهم.

(3) أي: خبرتهما.

(4) أي خائف من ذيوعه إذا هو كتبه.

(5) الرسلة: الكسل.

(6) تاريخ الطبري (6/ 221). يأمره هنا: يشير إليه.

(7) تاريخ الطبري (6/ 221).

إن تحليل هذا النص يكشف لنا عن الحقائق التالية:

أ - إن بداية الفكرة كانت من معاوية، وأنه كان يدرك أنه كان يقدم على أمر خطير، لا بل على حدث لم يسبق إليه، ولهذا اصطفى زياداً للاستشارة، وزياد هو الذي قال عنه الأصمعي: الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل صغيرة وكبيرة. وقد أشار عليه زياد بالتؤدة فقبل. ولهذا لم يُقدم معاوية على الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد[1]. قال الطبري: لما مات زياد، دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد، إن حدث به حدث الموت، فيزيد ولي عهد، فاستوثق له الناس[2] على البيعة ليزيد غير خمسة[3].

ب - إن معاوية لم يكن يريد حين الاستشارة الاكتفاء بالعهد، وإنما أراد الناس على مبايعة يزيد وهو حي، وهو حدث جديد أيضاً لم يعهد من قبل، لأن الناس لم يبايعوا عمر إلا بعد وفاة أبي بكر ﷺ.

جـ - إن زياداً قد أحسَّ خطورة الأمر، فلم يشأ بادئ الأمر أن يكتب لمعاوية بنصيحته، بل أراد أن يحمّلها لرسول خاص وهو «عبيد الله بن كعب النميري» ليؤديها عنه إلى معاوية شفهياً، وفي ذلك من الحيطة الشيء الكثير، لئلا يشيع خبر الكتاب، فيحدث ما لا يحمد. ولهذا قال لعبيد: ولهذا دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف.

د - إن معاوية كان يتخوف نفرة الناس، فليس العهد لولد الخليفة والخليفة حي بالأمر اليسير.

هـ - إن زياداً كان يخشى على الأمة من يزيد، ولذلك يقول: وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد. ولهذا أيضا نرى في جواب عبيد له أن سيلقى يزيد وينقل إليه: أن زياداً يرى ترك ما ينقم عليه وبذلك: يسلم ما تخاف من علاقة.

و - إن زياداً كتب أخيراً إلى معاوية، ولكن لينصحه بالتؤدة وألا يعجل فقبل ذلك معاوية[4].

وممن شاورهم معاوية ﷺ الأحنف بن قيس، فقد روي أن معاوية لما نصّب ولده يزيد

---

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 191).
(2) استوثق له الناس: اجتمعوا على رأيه.
(3) تاريخ الطبري (6/ 221).
(4) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 192).

لولاية العهد، أقعده في قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين: اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف بن قيس جالس. فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بألوف فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال: يا أبا بحر إني لأعلم أن شر من خلق الله سبحانه وتعالى هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فليس نطمع في استخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً[1].

2 - الحملات الإعلامية:

ومن التمهيدات الإعلامية الناجحة التي قدمها معاوية ﷺ لابنه توليته أميراً على الجيش الذي وجهه إلى غزو القسطنطينية وبعد أن رجع من الغزو ولاه إمارة الحج، ولكنه كان يتخوف نفرة الناس ويتهيب من بعض المعارضين[2]، ولذلك كان يواصل إعداد العدة للأمر، ويستشير ولاته ورجال دولته ويستعين بهم في تذليل العقبات وتهيئة الأجواء لأخذ البيعة ليزيد ومما يذكر في هذا الجانب، أن الشاعر ربيعة بن عامر الدارمي المعروف بـ«مسكين الدارمي»، وكان مما يؤثره يزيد ويصله، أنشد في مجلس معاوية، وكان المجلس حافلاً ويحضره وجوه بني أمية فقال:

ألا ليتَ شِعري ما يقولُ ابنُ عامرٍ ... ومروانُ أم ماذا يقولُ سعيدُ
بني خلفاء الله مهلاً فإنَّما ... يُبَوِّئُها الرحمن حيثُ يريدُ
إذا المنبرُ الغربيُّ خلاّه ربُّه ... فإن أمير المؤمنينَ يزيدُ

فقال معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ولم يتكلم أحد من بني أمية إلا بالإقرار والموافقة[3].

3 - قبول أهل الشام لبيعة يزيد:

أدرك معاوية ﷺ حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم، فقد حسم أهل الشام أمرهم وأصبح خيارهم في ولاية العهد ليزيد ووجدوا فيه ضالتهم لاستمرار صدارتهم في الدولة الإسلامية، ولم يكن أهل الشام يستغربون فكرة توريث الخلافة كما كان يستغربها أهل الحجاز، فقد عهدوها من قبل إبان حكم البيزنطيين لهم، بل إن بعض أهل العراق أيضا كانوا

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 458.
(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 104.
(3) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 455)، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 104.

فيما يبدو مهيئين لتقبل فكرة توريث الخلافة، ولكن من منظور خاص، حيث يرون أحقية أهل البيت بها واستمرارها فيهم وقد تأثروا في ذلك بنظام الحكم الساساني للفرس قبل الفتح الإسلامي لهذه البلاد[1]، إن أهل الشام استجابوا لرغبة معاوية في تولية يزيد ولياً لعهده من بعده، وكان ذلك بعد رجوع يزيد من غزوة القسطنطينية، وقد أدى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعة يزيد، ولم يكن هناك أي معارض[2]، وقد أسهم أهل الشام فيما بعد في أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى مثل الحجاز[3].

4 - بيعة الوفود:

عقد معاوية ﷺ اجتماعاً موسعاً في دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم، وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية، فمثلاً من بلاد الشام: الضحاك بن قيس الفهري، ثور بن معن السلمي[4]، عبد الله بن عضاة الأشعري، عبد الله بن مسعدة الفزاري، عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، حسان بن مالك بن بحدل الكلبي[5] وغيرهم، كما حضر عن أهل المدينة: عمرو بن حزم الأنصاري - وذلك في وقت متأخر - وحضر عن أهل البصرة: الأحنف بن قيس التميمي، ثم تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأثنوا عليها، وأكدوا أن هذه هي الطريقة الأصوب لحقن الدماء والحفاظ على الألفة والجماعة[6]، فحصلت المبايعة ليزيد بولاية العهد على أن الشيء المؤكد أن عمرو بن حزم الأنصاري لم يحضر هذا الاجتماع وذلك لأحد أمرين:

الأمر الأول: هو أن أهل المدينة لم يوافقوا في الأصل على البيعة وعارضوها بشدة فلم يرسلوا في موعد الوفود أحد.

الأمر الثاني: هو أن معاوية قد رفض الالتقاء بعمرو بن حزم، وما ذلك إلا لأنه بلغه معارضة أهل المدينة، وعرف أن عمرو بن حزم مندوب عن أولئك المعارضين، فخشي إن حضر الاجتماع سوف يشتت الآراء، ويحدث بلبلة من خلال معارضته، ولهذا استجاب له أخيراً فالتقى به على انفراد وحصل بالفعل ما كان يظن معاوية ولكن معاوية تقبل الانتقاد وأجزل له العطاء[7] وكان ذلك بعدما عزل رأي ابن حزم عن الوفود.

---

(1) مسند أحمد (2/ 325) الموسوعة الحديثية حسن لغيره.

(2) تاريخ خليفة، ص: 211، مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 89.

(3) تاريخ فلسطين، هاني أبو الرب، ص: 319، 320، البيان والتبيين (1/ 392).

(4) مختصر تاريخ دمشق (3/ 386).

(5) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 89.

(6) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 90.

(7) مجمع الزوائد (7/ 248، 249) صحيح الإسناد.

5 - طلب البيعة من أهل المدينة:

مثلما أرسل معاوية ﷺ إلى الأقاليم يطلب منهم البيعة ليزيد أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها أخذ البيعة ليزيد[1] فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيباً فحض الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال مروان سنة أبي بكر الراشدة المهدية، واستدل على ذلك بولاية العهد من أبي بكر لعمر، فرد عليه عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ [2]، ونفى أن تكون هناك مشابهة بين هذه البيعة وبيعة أبي بكر، وقال: فقد ترك أبو بكر الأهل والعشيرة وعمد إلى رجل من بني عدي بن كعب؛ إذ رأى أنه لذلك أهل فبايعه. ثم قال: هذه البيعة شبيهة ببيعة هرقل وكسرى ثم حدث بينه وبين مروان نزاع[3].

وجاء في رواية عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق ﷺ: يا معشر بني أمية اختاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله، أو سنة أبي بكر، أو سنة عمر.. ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية كلما مات قيصر كان قيصر[4]، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه[5]، فقال: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ [الأحقاف: 17] فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري[6].

وقد سبق طلب مروان بن الحكم من أهل المدينة البيعة ليزيد تمهيد من معاوية ﷺ؛ حيث أرسل رسالة لم يذكر فيها يزيد، وإنما جاء فيها: إني قد كبرت سني وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بالأمر بعدي، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك، فاعرض عليهم ذلك، وأعلمني بالذي يردون عليك. فقام مروان في الناس فأخبرهم بما أراد معاوية فقال الناس: أصاب معاوية، ووفق، وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو[7]، ولكن عندما ذكر في المرة التالية اسم يزيد، امتنع أهل المدينة في بداية الأمر، وعبَّر عبد الرحمٰن بن أبي بكر عمّا في نفوسهم[8].

ومما سبق نلاحظ أن مروان بن الحكم لم يوفق في المهمة التي كلفه بها معاوية ﷺ، وعند ذلك قرر معاوية المجيء بنفسه إلى الحجاز ومعرفة موقف الصحابة من هذه القضية

(1) العقد الفريد (4/ 370، 372) مواقف المعارضة، ص: 98.
(2) مواقف المعارضة، ص: 99، مجمع الفوائد (5/ 241) إسناده حسن.
(3) مجمع الفوائد (5/ 241) إسناده حسن.
(4) البخاري، رقم 4827.
(5) البخاري، رقم (4827)، وفي البخاري رواية أخرى.
(6) المصدر نفسه، رقم (4827).
(7) المدينة في العصر الأموي، ص: 88، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(8) مواقف المعارضة، ص: 99.

المهمة، فجاء ﷺ معتمراً في شهر رجب من سنة 56هـ[1]، فلما علم عبد الرحمٰن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير بقدوم معاوية خرجوا من المدينة، واتجهوا من المدينة إلى مكة[2]، فلما قدم معاوية المدينة خطب الناس وحثهم على البيعة وبيّن أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة[3]، ثم قال: قد بايعنا يزيد فبايعوه[4].

ويبدو أن معاوية قد ذكر أنه يخشى على ابن عمر وغيره من القتل إن مانعوا، ويقصد بخوفه عليهم من أهل الشام، الذين لا يمكن أن يتصوروا أن أحداً يخالف أمير المؤمنين في أمر اتفق عليه كثير من الناس، فقد ذكر أن معاوية قال: والله ليبايعنَّ ابن عمر أو لأقتلنّه، فلما بلغ الخبر عبد الله بن صفوان[5]، غضب وعزم على مقاتلة معاوية إن ثبت هذا. فلما سأل معاوية أنكر ذلك وقال: أنا أقتل ابن عمر؟! إني والله لا أقتله[6].

أ - عبد الله بن عمر ﷺ في مجلس معاوية ﷺ: فلما قدم معاوية مكة، وقضى نسكه بعث إلى ابن عمر فقدم عليه فتشهد معاوية وقال: أما بعد يا ابن عمر فإنك قد كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء وليس عليك أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى على فساد ذات بينهم، فرد ابن عمر على معاوية، وبين له كيف كانت طريقة بيعة الخلفاء الراشدين، وذكر له كيف أن لهم أبناء خير من يزيد، فلم يروا في أبنائهم ما يرى معاوية في يزيد ثم بين له أيضاً أنه لا يريد أن يشق عصا المسلمين، وأنه موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد ﷺ، فأثلج هذا القول صدر معاوية ﷺ وقال: يرحمك الله[7].

فقد اشترط ابن عمر حدوث الإجماع على بيعة يزيد حتى يعطيه البيعة[8]، وكان معاوية ﷺ قد أرسل بمائة ألف درهم لابن عمر، فلما دعا معاوية لبيعة يزيد قال: أترون هذا أراد، إن ديني إذاً عندي لرخيص[9]، وكان ابن عمر ﷺ يرى أنه لا يجوز أن يؤخذ على البيعة الدراهم، لأنها من باب الرشوة، فإن كانت البيعة حقاً فلا يجوز له أن يأخذ على الحق أجراً،

(1) البداية والنهاية (11/ 305).
(2) التاريخ الصغير للبخاري (1/ 103) إسناده حسن.
(3) تاريخ خليفة، ص: 213، 214 إسناده حسن.
(4) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير (1/ 262) حسن مشهور.
(5) التقريب، ص: 308، قتل عام 73هـ بالكعبة مع ابن الزبير.
(6) الطبقات (4/ 83) بسند صحيح، تاريخ خليفة، ص: 214 - 215 بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص: 101، 102.
(7) تاريخ خليفة، ص: 214، 215 بسند صحيح.
(8) الفقهاء والخلفاء د. سلطان خالد، ص: 58.
(9) الطبقات (4/ 182) بسند صحيح.

وإن كانت باطلاً فلا يجوز له أن يبذل البيعة لمن لا يستحقها من أجل المال[1]. موقف ابن عمر ﷺ هو عدم الرضا بالأسلوب الوراثي للحكم أو أخذ البيعة عن طريق المال[2].

ب - **عبد الرحمٰن بن أبي بكر في مجلس معاوية** ﷺ : وخرج ابن عمر - من مجلس معاوية - واستدعى عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق ﷺ ، فأخذ معاوية في الكلام، فقاطعه عبد الرحمٰن، ورد عليه بلهجة شديدة، وذكر أنه يمانع بيعة يزيد، وطلب أن يكون الأمر شورى، وتوعد معاوية بالحرب[3]. ثم قام فقال معاوية: اللّهم اكفنيه بما شئت، وطلب منه أن يتمهل وأن لا يعلن رفضه أمام أهل الشام فيقتلوه، فإذا جاء العشي وبايع الناس، ثم يكون بعد ذلك على ما عنده من رأي[4]. وكان الأولى لمعاوية ﷺ أن يطلب من أهل الشام ألا يتعرضوا لمن خالفه.

جـ - **عبد الله بن الزبير** ﷺ : ثم استدعى ابن الزبير واتهمه معاوية بأنه السبب في منع البيعة، وأنه وراء ما حدث من ابن عمر وابن أبي بكر، فردّ عليه ابن الزبير وطلب منه أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملّها، ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلاً منه فيبايعه. ثم استدل على عدم موافقته على المبايعة بما استنبطه من حديث الرسول ﷺ بأنه: لا يجوز مبايعة اثنين في آن واحد[5] ثم قال: وأنت يا معاوية أخبرتني أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا كان في الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما»**[6].

ج - **الحسين بن علي** ﷺ : ومن الملاحظ أن الرواية السابقة لم تذكر الحسين بن علي ضمن من استشارهم معاوية في بيعة يزيد، ولعل السبب يعود إلى أن معاوية أدرك العلاقة بين أهل العراق وبين الحسين، وأنهم كانوا يكتبون له ويمنونه بالخلافة من بعد معاوية، ثم إن الحسين قد قابل معاوية بمكة فكلمه طويلاً - كما يبدو - في أمر الخلافة الأمر الذي أغضب يزيد فقال لأبيه: لا يزال رجل قد عرض لك، فأناخ بك، قال: دعه لعله يطلبها من غيري فلا يسوغه، فيقتله[7].

وتبين لنا من خلال الحوار الذي دار بين معاوية وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير ﷺ أنهم يمانعون البيعة لسببين:

---

(1) موسوعة فقه ابن عمر، ص: 153 قلعجي.
(2) الفقهاء والخلفاء، ص: 59.
(3) تاريخ خليفة، ص: 213، 214 بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص: 103.
(4) تاريخ خليفة، ص: 214، تاريخ أبي زرعة (1/ 229) بإسناد صحيح.
(5) تاريخ خليفة، ص: 214 بإسناد حسن، حلية الأولياء (1/ 330، 331).
(6) المعجم الكبير للطبراني (19/ 314) مجمع الزوائد (5/ 198) قال الهيثمي ورجاله ثقات.
(7) الطبقات، الطبقة الخامسة، ص: 357 إسناد حسن نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 106.

أ - اعتراضهم على تولية يزيد؛ للعلاقة بين الأب والابن، وأن هذه لم تكن طريقة الخلفاء الراشدين.

ب - الاستدلال على بطلان هذه البيعة ورفضها لمخالفتها النص الصريح الذي ورد في الحديث النبوي، والذي لا يجيز البيعة لشخصين في آن واحد.

والملاحظ هنا هو أن المعارضين، لم يذكروا قدحاً في يزيد وإلا كيف يمكن أن يتجاهلوا صفات يزيد التي اتهم بها فيما بعد، وخاصة في ذلك الموقف الذي يتطلب حشد أي دليل في مقابل الخصم[1]. والحقيقة أنه كان هناك شعور قوي بين بعض الناس؛ خاصة بين أبناء المهاجرين؛ هو كيف أن معاوية الذي أسلم في فتح مكة يتولى خلافة المسلمين، وهناك من هو أقدم إسلاماً وأحق منه[2]، وكان البعض معترضاً على تقديم يزيد خوفاً من القيصرية والهرقلية على حد تعبير عبد الرحمٰن بن أبي بكر.

ولما رأى معاوية أوجه الانتقادات التي انتقد فيها أبناء الصحابة بيعة يزيد، ورأى أنها لا تمس يزيد شخصياً، بل أنها وجهات نظر ارتأوها ورأى معاوية خلافها، فهؤلاء مدفعون بحرصهم على جعل منصب الخلافة لا تتطرق إليه العلاقات الأسرية والرغبات الشخصية، ومن ثم تكون قيمة الخليفة واختياره مبنية على علاقته بالخليفة الذي قبله[3]، قام معاوية بعد اجتماعه مع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا أن ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيد، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له. فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم، فانتهرهم معاوية وقال: مه سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم، ثم نزل. فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر ويقولون لا والله ما بايعنا، ويقول الناس: بلى لقد بايعتم، وارتحل معاوية ولحق بالشام[4]. وبهذه الرواية الصحيحة يتبين لنا كذب تلك الرواية التي تتهم معاوية ﷺ بأنه أقام على رأس كل رجل من الصحابة الأربعة وهم عبد الله بن عمر، عبد الله ابن الزبير، عبد الرحمٰن بن أبي بكر، والحسين بن علي رضوان الله عليهم أقام على رأس كل واحد منهم رجلين، وأعطى الإشارة لكل حارس بقتل من يمانع البيعة، فبايع الناس وبايع ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر تحت تهديد السلاح؛ فبالإضافة على ضعف الرواية سنداً،

(1) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 104.
(2) مصنف ابن أبي شيبة (111/ 90) بسند صحيح.
(3) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام د. الدوري، ص: 64.
(4) تاريخ خليفة بسند حسن، ص: 214.

فإن متنها لا يقل عن سندها من حيث الضعف، ولا يقف أمام النقد الدقيق[1]، فمثلاً في بداية الرواية: أن معاوية لما كان قريباً من مكة قال لمرقال صاحب حرسه: لا تدع أحداً يسير معي إلا من حملته أنا فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك لقيه الحسين بن علي فوقف وقال: مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، سيد شباب المسلمين ودعا بدابة لأبي عبد الله يركبها، ثم طلع عبد الرحمٰن بن أبي بكر، فقال: مرحباً وأهلاً بصاحب رسول الله ﷺ وابن الصديق وسيد المسلمين ودعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير فقال مرحباً وأهلاً بابن حواري رسول الله ﷺ وابن الصديق وابن عمة رسول الله ﷺ، ثم دعا له بدابة فركبها ولم يعرض لهم شيء حتى قضى نسكه[2].

وأما ما يتعلق بباقي الرواية التي تذكر أن معاوية أوقف على رأس كل رجل حارسين وأمرهما بقتل من يحاول الاعتراض على البيعة، إذا بويع يزيد فهذا مستبعد لأمرين:

أحدهما: أليس من الغريب جداً على معاوية أن يستخدم العنف بهذه الصفة مع أبناء الصحابة، والصحابة أنفسهم ومن ثم يتسبب في توسيع الخلاف ويباعد الشق بينه وبين يزيد من جهة، وبين الصحابة وأبنائهم من جهة أخرى.

والأمر الآخر: عندما يقف الحراس على رؤوس الأربعة، ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر والحسين، أليس هذا المنظر أمام الناس يجعل الشك عند الناس يتضاعف حول مكانة يزيد، ويعرف الناس أن أولئك الحراس الذين يقفون على رأس كل شخص إنما يتربصون به ويبغونه شراً، ثم يصبح لدى الناس اقتناعاً كاملاً بأن هذه البيعة بيعة إكراه وخديعة فيمانعوا[3].

ثالثاً: تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد:

اختلفت المصادر حول تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد على النحو التالي:

1 - ذكر خليفة بن خياط[4]، والذهبي[5]، أنه كان في سنة 51هـ.

2 - ذكر ابن عبد ربه[6]، أن ذلك كان في سنة 55هـ.

---

(1) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 106، تاريخ خليفة، ص: 215 بسند جويرية بن أسماء قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون، والرواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

(2) تاريخ خليفة، ص: 215، رواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

(3) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 110.

(4) تاريخ خليفة، ص: 213.

(5) تاريخ الإسلام (عهد معاوية)، ص: 147.

(6) العقد الفريد (4/ 338).

3 - ذكر الطبري[1]، وابن الجوزي[2]، وابن الأثير[3]، وابن كثير[4]، أن ذلك كان في سنة 56هـ.

هذا وبعد دراسة التواريخ السابقة اتضح عدم صحة ترشيح يزيد بن معاوية سنة 51هـ[5] للأسباب التالية:

أ - أن وفاة الحسن بن علي ﷺ كانت في السنة نفسها أي في سنة 51هـ واتخاذ قرار ترشيح يحتاج لوقت من طرف معاوية لكي يدرسه ويستشير فيه، كما أنه ليس من الحكمة إعلان قرار الترشيح بعد وفاة الحسن ﷺ مباشرة.

ب - قتل حجر بن عدي ﷺ في السنة نفسها، أي في سنة 51هـ، لذا فإنه أيضاً ليس من الحكمة إعلان ترشيح يزيد بن معاوية في هذه السنة، لأن الأنفس لم تكن مهيأة لمثل هذه القرارات الجريئة، التي يعتبر توقيت إعلانها على الناس من أهم عوامل نجاحها.

جـ - إن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد كان أثناء ولاية مروان بن الحكم على الحجاز[6]، وهي بلا شك الفترة الثانية من ولاية مروان بن الحكم والتي امتدت من سنة (54هـ - 57هـ) وذلك أن الفترة الأولى من ولاية مروان بن الحكم كانت من سنة (42 - 49هـ).

بعد ذلك يتبقى تاريخان لإعلان ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد وهما 55هـ وسنة 56هـ، وهذان التاريخان يكمل أحدهما الآخر - كما سيتضح لاحقاً - ولكن يرد في هذا المقام سؤال حول السبب الذي جعل معاوية ﷺ يؤخر ترشيح ابنه يزيد ولياً للعهد على سنة 55هـ أو سنة 56هـ مع أن الحسن بن علي ﷺ توفي سنة 51هـ، وجواب هذا السؤال يكمن في معرفة أهم حدث وقع في سنة 55هـ حيث توفي في هذه السنة سعد بن أبي وقاص ﷺ، آخر الستة الذين رضيهم ورشحهم عمر بن الخطاب ﷺ للخلافة من بعده[7].

رابعاً: وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

حاول بعض الإخباريين أن يوجدوا علاقة بين وفاة عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد وبين بيعة يزيد بن معاوية، فذكر البعض أن معاوية ﷺ لما رأى مكانة عبد الرحمٰن بن خالد بن

(1) تاريخ الطبري (6/ 219).
(2) المنتظم (5/ 285).
(3) البداية والنهاية (11/ 305).
(4) الكامل في التاريخ (2/ 508).
(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 450.
(6) صحيح البخاري مع الفتح (8/ 439).
(7) مرويات خلافة معاوية، ص: 452، سير أعلام النبلاء (1/ 123).

الوليد عند أهل الشام - بسبب مآثر عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، ولغنائه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه - خافه معاوية فأمر ابن أثال الطبيب النصراني فدس إليه السم[1]، في حين يرجح ابن الكلبي سبب القتل إلى أمر آخر وهو: أن معاوية لما أراد أن يولي الأمور رجلاً من بعده خطب في أهل الشام عن عزمه ذاك دون ذكر اسم أحد، فماذا ترون؟ فقالوا: عليك بعبد الرحمٰن بن خالد، وكان فاضلاً فسكت معاوية وأضمرها في نفسه ثم إن عبد الرحمٰن اشتكى، فدعا معاوية طبيبه بن أثال وأمره بدس السم إلى عبد الرحمٰن[2].

فهذه الروايات بالإضافة إلى ضعف سندها يوجد اختلاف في متنها مع الواقع الملموس؛ فمعاوية ﷺ بيده عزل الأمراء أو توليتهم كما هو معروف، وليس بالصعوبة على معاوية أن يطلب من عبد الرحمٰن بن خالد أن يتنحى عن قيادة الصوائف على الثغر الرومي، ويهمل عبد الرحمٰن بن خالد، ثم لا يكون له أي مكانة يُخشى منها، وقد ورد أن معاوية عزله وولى بدلاً منه سفيان بن عوف الغامدي[3]على إحدى الصوائف[4]، وليس هذا يشكل صعوبة على معاوية، بل إن معاوية كان يعزل عن الإمارة من هو أعظم وأقوى من عبد الرحمٰن بن خالد، ثم كيف يقوم معاوية بقتله وقد أورد الطبري ذكر غزوة البحر سنة 48هـ، وكان قائد أهل مصر عقبة ابن عامر الجهني، وعلى أهل المدينة المنذر بن زهير، وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمٰن ابن خالد بن الوليد[5]، فكيف يرضى معاوية أن يكون ولده قائداً كبيراً من بعد أبيه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يرضى أن يقوم ولده بقيادة الجيش لمعاوية إن كان معاوية قاتل أبيه، وهل يمكن أن يخفى على ولده هذا الأمر وهو أقرب الناس إليه[6]؟ فهذه أكاذيب واضحة حاولت أن توجد علاقة بين موت عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد والبيعة ليزيد، ومثلها مثل الأكاذيب التي حاولت أن تربط بين موت الحسن بن علي والبيعة ليزيد - كما مرّ ذكره.

إن خبر وفاة عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد بالسم أورده القاسم بن سلام، وابن حبيب البغدادي[7]، وذكر أن الدافع هو الخوف من منافسة عبد الرحمٰن ليزيد في ولاية العهد[8]،

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 143) رواية ضعيفة.

(2) كتاب الأمثال، ص: 192 للقاسم بن سلام، ضعيف الإسناد.

(3) تهذيب تاريخ دمشق (6/ 185).

(4) أنساب الأشراف (4/ 104) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 92.

(5) تاريخ الطبري (6/ 147).

(6) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 83.

(7) المنمق في أخبار قريش، ص: 360.

(8) هذا تعليل فاسد، لأن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد ظهر في عام 56هـ بعد وفاة الحسن بن علي، وسعد ابن أبي وقاص وسعيد بن زيد ﷺ

كذلك أورد الخبر البلاذري[1]، وأبو الفرج الأصفهاني[2]، وأبو هلال العسكري[3]، وخبر اتهام معاوية ﷺ بحادثة سم عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد لم يرد بإسناد صحيح، بل هو من الأخبار المكذوبة على هذا الصحابي الكريم[4]وفي ذلك يقول ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير وغيره، أن رجلاً يقال له: ابن أثال - وكان رئيس الذمة بأرض حمص - سقاه شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك، ولا يصح[5].

خامساً: أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد:

1 - الحفاظ على وحدة الأمة:

نظر معاوية ﷺ إلى ابنه يزيد على أنه المرشح الذي سيحظى بتأييد أهل الشام الذين يمثلون العامل الأقوى في استقرار الدولة، وقد أبرز معاوية ﷺ السبب الذي دعاه لاختيار ابنه يزيد وذلك أثناء جمع التأييد له من كبار أبناء الصحابة أثناء رحلته الأخيرة للحج، إذ كان الدافع لمعاوية ﷺ عندما سارع في أخذ البيعة ليزيد هو خوفه من الاختلاف[6] الذي قد يطرأ على الأمة بعد موته، وربما تنخرط في قتال جديد لا يعلم سعته ومداه إلا الله ﷻ[7]. كان معاوية يرهب أن يدع أمة محمد ﷺ كالضأن لا راعي لها[8]، ولذلك عمل على اختيار من يخلفه، وكان الأولى بمعاوية ﷺ أن يعين من أفاضل المجتمع الإسلامي رجالاً يجعلهم موضع شورى يختاروا من كان أهلاً للخلافة ويبتعد عن ترشيح ابنه يزيد، لأن اختيار يزيد لم يكن أماناً من الاختلاف والقتال وسفك الدماء، ولقد وقع المحظور بعد وفاة معاوية، وسفكت الدماء ولم يزح اختيار معاوية يزيد ما تعلل به من المخاوف، ويبدو أنه وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، واتباع الوراثة بديلاً من الشورى في اختيار الخليفة، ولأسباب أخرى.

وعلى كل حال فمعاوية ﷺ اجتهد ولم يكن مصيباً في تولية يزيد لولاية العهد، فقد كان بوسعه وقدراته السياسية الفائقة أن يطمئن في حياته على اجتماع كلمة المسلمين في أمر الخلافة من بعده باختيار واحد من قريش يشهد له الناس بحسن السيرة أكثر من يزيد ابنه، ويجتمع عليه أعيان المجتمع الإسلامي في الشام والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

---

(1) أنساب الأشراف (4/ 109).
(2) الأغاني (16/ 197).
(3) جمهرة الأمثال (2/ 385).
(4) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 384.
(5) البداية والنهاية (11/ 174).
(6) دراسات في النظم، ص: 41. د. توفيق اليوزكي.
(7) مواقف المعارضة من خلافة يزيد، ص: 131.
(8) تاريخ الطبري (6/ 222).

2 - قوة العصبية القبلية:

خاض معاوية ﷺ الحرب وتولى الخلافة بنصرة من أهل الشام، وكانوا من أشد الناس طاعة لمعاوية ﷺ ومحبة لبني أمية،ومن الدلائل على تلك الطاعة والمحبة هو: أن معاوية ﷺ لما عرض خلافة يزيد بن معاوية على أهل الشام وافقوا موافقة جماعية، ولم يتخلف منهم أحد، وبايعوا ليزيد بولاية العهد من بعد أبيه[1]، ومن الدلائل على قوة العصبية في بلاد الشام لبني أمية أن مروان بن الحكم تمكن من الانتصار بأهل الشام على عمال عبد الله ابن الزبير، ثم تبعه بعد ذلك ابنه عبد الملك بن مروان، حتى تمكن من الانتصار بأهل الشام على ابن الزبير وقتله73هـ ﷺ ، ومع ذلك لم نجد أهل الشام انقادوا لابن الزبير، بل إن أهل العراق غدروا بأخيه مصعب ابن الزبير ومالوا مع عبد الملك بن مروان؛ فلماذا لم تجتمع الأمة على ابن الزبير وهو في ذلك الحين لا يشاركه أحد في فضائله ومكانته؟ بل نجد العكس؛ نجد أن عبد الملك بن مروان الذي يعتبر في السن كأحد أبناء عبد الله بن الزبير، تمكن من تولي زعامة المسلمين[2].

فعصبية أهل الشام كانت سبباً مهماً في تولية يزيد وليست عصبية بني أمية، فإن أسرة بني أمية لم تكن ذات تأثير كبير على الأحداث في مجيء معاوية ﷺ إلى منصب الخلافة، وقد بنى ابن خلدون دفاعه عن صنيع معاوية في ولاية العهد أن المصلحة تقتضي ذلك؛ حيث قال: والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه أنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذٍ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم من أجل ذلك[3].

وقال أيضاً: عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة، بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه[4]. أي إن قوة عصبية بني أمية

(1) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 131.
(2) المصدر نفسه، ص: 132.
(3) مقدمة ابن خلدون (1/ 262، 263).
(4) مقدمة ابن خلدون (1/ 257، 258).

وسطوتهم ونفورهم من الانقياد لغيرهم، جعلت معاوية ﷺ يختار مرشحاً من بني أمية، فكان ابنه يزيد خوفاً منه على الأمة من الفرقة والاختلاف[1].

ومما لا شك فيه لو جاء معاوية برجل من ذوي الكفاءة من قريش غير ابنه يزيد، واستفتى ذوي الرأي والنهي بشأنه، ثم وقف وراءه بثقله الكامل وتأييده الصريح، وطلب من أهل الحل والعقد في الأمة مبايعته بولاية العهد، فهل كان يعترض أحد؟ طبعاً لا، ذلك لأن أمير المؤمنين هو الداعي، ولأن المرشح لولاية العهد رجل أريد بترشيحه ومبايعة مصلحة الأمة والدولة مجردة من كل شبهة أو عاطفة؛ ألا ترى معي أن ذلك كان ممكناً وأنه كان محققاً للغرض القائل بأن القصد من ولاية العهد هو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، وتجنب الأمة أخطار التنازع والفتن من جديد؟ ولكن معاوية ﷺ على كل حال اجتهد، فإن كان مصيباً فله أجران، وإن كان مخطئاً فله أجر[2].

3 - محبة معاوية لابنه وقناعته به:

قال ابن كثير: وقد كان معاوية لما صالح الحسن، عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهل، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك والقيام بأبهته، وكان ظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى[3].

وقال معاوية ﷺ لعمرو بن حزم الأنصاري، الذي كان معارضاً للبيعة، فذكّر معاوية بالله، وطلب منه أن ينظر في عاقبة الأمور، فشكره معاوية وقال: إنك امرؤ ناصح. ثم أخذ معاوية يُبيّن له بصراحة أنه لم يبق إلا ابنه وأبنائهم وابنه أحق من أبنائهم[4].

وكانت ليزيد بعض الصفات التي شجعت معاوية على جعله ولياً للعهد، قال الذهبي في ترجمة يزيد: كان قوياً شجاعاً، ذا رأي وحزم، وفطنة وفصاحة[5]، وقال ابن كثير: وكان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك[6]، ربما كانت هذه الصفات دافعة لمعاوية وكافية له ليكون صالحاً للخلافة[7].

---

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 462.
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 126.
(3) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص: 459 - 460.
(4) مجمع الفوائد (7/ 248، 249)، رجاله رجال صحيح الإصابة (4/ 621)، رجاله ثقات.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 37).
(6) البداية والنهاية (11/ 646).
(7) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 204.

ولا شك أن الصحابة وأبنائهم أفضل من يزيد وأصلح، ولكن مع ذلك فإن معاوية ربما رأى في ولده مقدرة لا تكن لغيره في قيادة الأمة، بسبب عيشته المتواصلة مع أبيه ومناصرة أهل الشام وولائهم الشديد له، ثم اطلاعه عن قرب على معطيات ومجريات السياسة في عصره، وقد أنس معاوية ﷺ من ولده يزيد حرصاً على العدل وتأسياً بالخلفاء الراشدين، فقد كان يسأله عن الكيفية التي سيير بها في الأمة فيرد عليه يزيد بقوله: كنت والله يا أبت عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب[1]. وغير ذلك من الأسباب.

فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحرب، الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف، وإن كان أميناً[2]. فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها.

وسئل الأمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو أحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف مع أيهما يُغزى، فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، يُغزى مع القوي الفاجر[3].

ومعظم المقصود من نصب الأئمة حياطة المسلمين، ودفع عدوهم، والأخذ على يد ظالمهم، وإنصاف مظلومهم، وتأمين سبلهم، وتفريق بيت مالهم فيهم، على ما أوجبه الشرع، فمن كان ناهضاً بهذه الأمور ونحوها فيه يحصل مقصود الإمامة، ويطيب عيشهم، ويأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وحرمهم وإن كان غيره أكثر علماً منه، أو أوسع عبادة، أو أعظم ورعاً فإنه إذا كان غير ناهض بالقيام بهذه الأمور، فلا يعود على المسلمين من علمه أو ورعه وعبادته فائدة، ولا ينفعهم كونه مريداً للصلاح وإجراء الأمور مجاريها الشرعية مع عجزه عن ذلك وعدم قدرته على إنفاذه[4]. فقد كان معاوية ﷺ يرى بولاية المفضول مع وجود الفاضل. هذه أهم أسباب ترشيح معاوية ﷺ لابنه.

سادساً: الانتقادات التي وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد:

لقد حمّل كثير من المؤرخين السابقين والمعاصرين معاوية ﷺ مسؤولية البيعة الكاملة، وبالتالي حملوه جميع الأخطاء التي يقع فيها الحكام من زمان معاوية حتى عصرنا الحاضر،

(1) الأشراف لابن أبي الدنيا، ص: 127، سنده ضعيف.
(2) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص: 22.
(3) المصدر نفسه، ص: 22.
(4) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة، ص: 35، صديق حسن خان.

فمنهم من اتهمه بالخروج على نظام الشورى في الإسلام فكان أول محطم لنظام الإسلام[1]. ومنهم من اتهم معاوية بأنه أقر النظام الذي يعتمد على السياسة أولاً وإلى الدين ثانياً[2]، والبعض شبه معاوية بالملوك الأقدمين من الفرس والروم[3]، والبعض يجعل معاوية بهذه البيعة هو رائد المدرسة «المكيافيلية» في السياسة القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية[4]، والبعض حكم على معاوية بارتكابه كبيرة أضافها إلى كبائره السابقة[5]، والبعض اعتبر معاوية خارجاً على إجماع المسلمين بهذه البيعة[6].

ولمعرفة صحة هذه الاتهامات من عدمها يجدر بنا أن نعرف ماهية الشورى وكيفية تطبيقها، فالشورى دعامة من دعائم الحكم في الإسلام، وقاعدة صلبة من قواعده كما أن اختيار الحاكم في الإسلام وتولي أمر الأمة المسلمة لا تعطيه صفة مقدسة، أو سلطة مطلقة[7]، بل إنه مسؤول عن كل عمل يقوم به وينفذ فيه ما ينفذ في شعبه، وأما طريقة الشورى فلم يحدد لها نظام خاصاً، فتطبيقها إذن متروك للظروف والمقتضيات الجارية[8]، فقد كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحي ويأخذ برأيهم فيما هم أعرف به من شؤون دنياهم، وكذلك سار الخلفاء الراشدون في استشارة المسلمين وإليك استعراض موجز لكيفية انعقاد إمامة الخلفاء الراشدين:

1 - طريقة انعقاد بيعة أبي بكر ﷺ:

قام أهل الحل والعقد في سقيفة بني ساعدة بيعة الصديق بيعة خاصة، ثم رشحوه للناس في اليوم الثاني وبايعته الأمة في المسجد البيعة العامة[9]، وقد أفرز ما دار في سقيفة بني ساعدة مجموعة من المبادئ منها: أن قيادة الأمة لا يقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هي أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب ديناً والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلامية، وشخصية، وأخلاقية، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة النسبية أو القبلية، وإن إثارة «قريش» في سقيفة بني ساعدة باعتباره واقعاً

(1) إسلام بلا مذهب، ص: 58، مصطفى الشكعة.
(2) نساء لهم في التاريخ الإسلامي نصيب، علي إبراهيم حسن، ص: 58.
(3) عائشة والسياسة، ص: 278، مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 141.
(4) ملامح التيارات السياسية، إبراهيم بيضون، ص: 147.
(5) الأعمال العربية الكاملة (6/ 36) أمين الريحاني.
(6) زعماء الإسلام، ص: 219، حسن إبراهيم حسن.
(7) مواقف المعارضة (ص: 142) النظرية الإسلامية للصعيدي، ص: 468.
(8) مواقف المعارضة، ص: 143.
(9) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص: 66، 67.

يجب أخذه في الحسبان، ويجب اعتبار أي شيء مشابه ما لم يكن متعارضاً مع أصول الإسلام، وأن الحوار الذي دار في سقيفة بني ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسي السائد بين المسلمين؛ حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات، ولا نقض للاتفاق، ولكن تسليم للنصوص التي تحكمهم حيث؛ المرجعية في الحوار إلى النصوص الشرعية[1].

أ - وأول ما قرره اجتماع يوم السقيفة هو أن (نظام الحكم ودستور الدولة) يقرر بالشورى الحرة، تطبيقاً لمبدأ الشورى الذي نص عليه القرآن الكريم، ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وسند هذا الإجماع هو النصوص القرآنية التي فرضت الشورى، أي أن هذا الإجماع كشف وأكد أول أصل شرعي لنظام الحكم في الإسلام وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستوري تقرر بالإجماع بعد وفاة رسولنا ﷺ، ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأييداً وتطبيقاً لنصوص الكتاب والسنّة التي أوجبت الشورى.

ب - تقرر يوم السقيفة أيضاً أن اختيار رئيس الدولة أو الحكومة الإسلامية وتحديد سلطاته يجب أن يتم بالشورى، أي: البيعة الحرة التي تمنحه تفويضاً ليتولى الولاية بالشروط والقيود التي يتضمنها عقد البيعة الاختيارية الحرة - الدستور في النظم المعاصرة - وكان هذا ثاني المبادئ الدستورية التي أقرها الإجماع، وكان قراراً إجماعياً كالقرار السابق.

جـ - تطبيقاً للمبدأين السابقين قرر اجتماع السقيفة اختيار أبي بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية[2]، ثم أن الترشيح لم يصح نهائياً إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أي موافقة جمهور المسلمين في اليوم التالي بمسجد الرسول ﷺ، ثم قبوله لها بالشروط التي ذكرها في خطابه[3] المشهور الذي جاء فيه: أما بعد: أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[4]. وقال عمر لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة[5]، وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب

(1) دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص: 256.
(2) فقه الشورى والاستشارة د. توفيق الشاوي، ص: 140.
(3) المصدر نفسه، ص: 142.
(4) البداية والنهاية (6/ 305، 306).
(5) البخاري، الأحكام - رقم (7219).

الإسلامية على إيجازها وقد قرر الصديق فيها قواعد العدل والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولي الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد في سبيل الله لأهميته في إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك في حماية المجتمع من الانهيار والفساد[1].

2 - طريقة انعقاد بيعة عمر بن الخطاب ﷺ :

لما اشتد المرض بالصديق ﷺ جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظنني إلا ميت لما بي وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي[2]، وقد قام أبي بكر ﷺ بعدة إجراءات لتتم عملية اختيار الخليفة القادم.

أ - استشارة أبي بكر كبار الصحابة: تشاور الصحابة ﷺ وكلٌّ يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، فدعا أبو بكر عبد الرحمٰن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال له: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني، فقال أبو بكر: وإن فقال عبد الرحمٰن: هو والله أفضل من رأيك فيه، ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللّهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله والله لو تركته ما عدتك. ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللّهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى الرضا، ويسخط للسخط، والذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه، وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريباً كانوا برأي واحد في عمر؛ إلا طلحة بن عبيد الله خاف من شدته، فقد قال لأبي بكر: ما أنت قائل لربِّك إذا سألك استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني أبالله تخوفوني؟ خاب من تزوَّد من أمركم بظلم، أقول: اللّهم استخلفت عليهم خير أهلك[3]. وبين لمن نبهه إلى غلظة عمر وشدته فقال: ذلك لأنه يراني رقيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما عليه[4].

ب - نص العهد الذي كتبه أبو بكر لكي يُقرأ على الناس: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا

(1) التاريخ الإسلامي (9/ 28).
(2) تاريخ الطبري (4/ 238)، التاريخ الإسلامي (9/ 258).
(3) الكامل لابن الأثير (2/ 79) التاريخ الإسلامي شاكر، ص: 101.
(4) الكامل لابن الأثير (2/ 79).

ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني أستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاستمعوا له وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، الخير أردت، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227].

جـ - **إبلاغ الناس بنفسه**: إنه أراد إبلاغ الناس بلسانه واعياً مدركاً حتى لا يحصل أي لبس، فأشرف أبو بكر على الناس وقال لهم: أترضون بما استخلف عليكم، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قربة، وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا سمعنا وأطعنا[1].

د - **التوجه بالدعاء لله**: أنه توجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويبثه كوامن نفسه، وهو يقول: اللّهم وليته بغير أمر نبيك، ولم أرد بذلك إلا إصلاحهم وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأيي، فولّيت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك[2].

هـ - **تكليف عثمان بقراءة العهد على الناس**: كلف أبو بكر ﷺ عثمان بن عفان أن يتولى قراءة العهد على الناس، وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبي بكر بعد أن ختمه؛ لمزيد من التوثيق والحرص على إمضاء الأمر، دون أي آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقروا بذلك جميعاً ورضوا به[3].

و - **وصية الصديق لعمر بن الخطاب** ﷺ: اختلى الصديق بالفاروق وأوصاه بمجموعة من التوصيات لإخلاء ذمته من أي شيء، حتى يمضي إلى ربه خالياً من أي تبعة بعد أن بذل قصارى جهده واجتهاده[4]، وقد جاء في الوصية: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل غداً، وحقّ لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، وإن الله تعالى ذكر

(1) تاريخ الطبري (4/ 248).
(2) طبقات ابن سعد (3/ 199)، تاريخ المدينة (2/ 665 - 669).
(3) طبقات ابن سعد (3/ 200).
(4) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص: 237.

أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف أن لا ألحق بهم، وأن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ورد عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم، قلت: إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء ليكون العبد راغباً راهباً، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حفظت وصيتي فلا يك غائب أبغض إليك من الموت، ولست تعجزه[1].

ونلاحظ أن عمر ﷺ ولّي الخلافة باتفاق أصحاب الحل والعقد وإرادتهم، فهم الذين فوضوا لأبي بكر انتخاب الخليفة، وجعلوه نائباً عنهم في ذلك، فشاور ثم عين الخليفة، ثم عرض هذا التعيين على الناس فأقروه وأمضوه، ووافقوا عليه، وأصحاب الحل والعقد في الأمة هم النواب « الطبيعيون » عن هذه الأمة، وإذن فلم يكن استخلاف عمر ﷺ إلا على أصح أساليب الشورية وأعدلها[2].

إن الخطوات التي سار عليها أبو بكر الصديق في اختيارخليفته من بعده لاتتجاوز الشورى بأي حال من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبعة فيها غير الإجراءات المتبعة في تولية أبي بكر نفسه[3]. وهكذا تم عقد الخلافة لعمر ﷺ بالشورى والاتفاق، ولم يرد في التاريخ أي خلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحداً نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته في أثناء حكمه، فكان الجميع وحدة واحدة[4].

3 - طريقة انعقاد بيعة عثمان ﷺ :

استطاع الفاروق ﷺ في اللحظات الأخيرة وهو على فراش الموت، رغم ما يعانيه من آلام جراحاته البالغة أن يبتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها في اختيار الخليفة الجديد، وكانت دليلاً ملموساً، ومعلماً واضحاً على فقهه في سياسة الدولة الإسلامية، لقد مضى قبله الرسول ﷺ ولم يستخلف بعده أحداً بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق واستخلف الفاروق بعد مشاورة كبار الصحابة، ولما طلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت، فكر في الأمر ملياً وقرر أن يسلك مسلكاً آخر يتناسب مع المقام، فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقر بأفضلية أبي بكر وأسبقيته عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادراً، وخصوصاً أن النبي ﷺ وجه الأمة قولاً وفعلاً إلى أن أبي بكر أولى بالأمر من بعده، والصّديق لما رشح عمر كان يعلم أن عند الصحابة أجمعين قناعة بأن عمر أقوى وأقدر وأفضل من يحمل

(1) صفة الصفوة (1/ 264، 265).
(2) أبو بكر الصديق - علي الطنطاوي، ص: 237.
(3) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص: 273.
(4) النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الريس، ص: 181.

المسؤولية بعده، فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة، ولم يخالف رأيه أحد منهم، وحصل الإجماع على بيعة عمر[1].

وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعتمد على جعل الشورى في عدد محصور، فقد حصر ستة من صحابة رسول الله كلهم بدريون وكلهم توفي رسول الله ﷺ وهو عليهم راضٍ، وكلهم يصلحون لتولي الأمر، ولو أنهم يتفاوتون، وحدد لهم طريقة الانتخاب ومدته وعدد الأصوات، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات في المجلس ومنع الفوضى؛ بحيث لا يسمحون لأحد يدخل أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الحل والعقد[2].

وبهذا يكون أمير المؤمنون أرسى نظاماً صالحاً للشورى لم يسبقه إليه أحد، ولا يشك أن أصل الشورى مقرر في القرآن والسنة القولية والفعلية، وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر، ولم يكن عمر مبتدعاً بالنسبة للأصل، ولكن الذي عمله عمر هو تعيين الطريقة التي يختار بها الخليفة وحصر عدد معين جعلها فيهم وهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصديق ﷺ بل أول من فعل ذلك عمر ونعم ما فعل، فقد كانت أفضل الطرق المناسبة لحال الصحابة في ذلك الوقت[3].

وبهذا جعل أمير المؤمنين هيئة سياسية عليا وهم أهل الشورى، وأناط بهم وحدهم اختيار الخليفة من بينهم، ومن المهم أن نشير إلى أن أحداً من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذي اتخذه عمر، كما أن أحداً من الصحابة الآخرين لم يثر أي اعتراض عليه، ذلك ما تدل عليه النصوص التي بين أيدينا، فنحن لا نعلم: أن اقتراحاً آخر صدر عن أحد من الناس في ذلك، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر خلال السَّاعات الأخيرة من حياته، أو بعد وفاته وإنما رضي الناس كافة هذه التدابير، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين، وفي وسعنا أن نقول: إنَّ عمر قد أحدث هيئة سياسية عليا مهمَّتها انتخاب رئيس الدولة أو الخليفة، وهذا التنظيم الدستوري الجديد، الذي أبدعته عبقرية عمر لا يتعارض مع المبادئ الأساسية التي أقرها الإسلام، ولاسيما فيما يتعلق بالشورى، لأن العبرة من حيث النتيجة العامة التي تجري في المسجد الجامع.

وعلى هذا لا يتوجّه السؤال الذي قد يرد على بعض الأذهان، وهو: من أعطى عمر هذا الحق؟ ما هو مستند عمر في التدبير؟ ويكفي أن نعلم أن جماعة من المسلمين قد أقرت هذا التدبير، ورضيت به ولم يُسمع صوت اعتراض عليه حتى نتأكَّد: أنَّ الاجماع - وهو مصدر من

(1) أوليات الفاروق، ص: 122.
(2) أوليات الفاروق، ص: 122.
(3) المصدر نفسه، ص: 127.

مصادر التشريع - قد انعقد على صحته ونفاذه[1]، ولا ننسى: أن عمر خليفة راشد، كما ينبغي أن نؤكّد أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقرّه نظام الحكم في الإسلام في العهد الراشدي، كما: أنَّ الهيئة التي سمّاها عمر، تمتَّعت بمزايا لم يتمتع بها غيرها من جماعة المسلمين، وهذه المزايا منحت لها من الله وبلغها الرسول، فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحد من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة من التقوى، والأمانة[2].

ومن الأمور المهمة حرص الفاروق على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهل لها، فهو يبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشحين للخلافة[3] وقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر مع أهل الشورى وأن ليس له من الأمر شيء، ولكن قال لهم: فإن رضي ثلاثة رجال منهم، وثلاثة رجال منهم، فحكِّموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له، فليختاروا رجل منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فيكون مع الذين فيهم عبد الرحمٰن بن عوف، فوصف عبد الرحمٰن بن عوف بأنه مسدد رشيد، له من الله حافظ فاسمعوا له[4].

وقد أشرف على العملية الانتخابية عبد الرحمٰن بن عوف وشاور الناس في أمر علي وعثمان ﷺ وكان يشاور كل من يلقاه في المدينة من كبار الصحابة، وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد ومن يأتي للمدينة وشملت مشاوراته النساء في خدورهنَّ، وقد أبدين رأيهنّ، كما شملت الصِّبيان، والعبيد في المدينة، وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمٰن بن عوف: أن معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفان ﷺ، ومنهم من كان يشير بعلي بن أبي طالب ﷺ . . . ثم بعد ذلك أعلن عبد الرحمٰن بعد صلاة الصبح من اليوم الأخير من شهر ذي الحجة 23هـ النتيجة التي وصل إليها، فبعد أن تشهد عبد الرحمٰن ثم قال: أما بعد: يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل على نفسك سبيلاً، ثم بايع عثمان على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده. فبايعه الناس: المهاجرون، والأنصار، أمراء الأجناد والمسلمون[5].

وجاء في رواية صاحب التمهيد والبيان: أن علي بن أبي طالب أوّل من بايع عبد الرحمٰن ابن عوف[6]، وقد اعتبر الذهبي ما قام به عبد الرحمٰن بن عوف من أفضل أعماله حيث قال:

---

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 227/ 228).
(2) المصدر نفسه (1/ 229).
(3) الخلفاء الرّاشدون للخالدي، ص: 98.
(4) تاريخ الطبري (5/ 325).
(5) البخاري، كتاب: الأحكام، رقم (7207).
(6) التمهيد والبيان، ص: 26.

ومن أفضل أعمال عبد الرحمٰن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحلِّ والعقد، فنهض في ذلك أتمَّ نهوض على جمع الأمَّة على عثمان، ولو كان محابياً فيها لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقاص[1]، وبهذا تحققت صورة أخرى من صور الشورى في أحد الخلفاء الراشدين: وهي الاستخلاف عن طريق مجلس الشورى، ليعينوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامّة، ثم البيعة العامّة[2].

4 - طريقة انعقاد بيعة علي بن أبي طالب ﷺ :

تمت بيعة علي ﷺ بالخلافة بطريقة الاختيار، وذلك بعد أن استشهد الخليفة الراشد عثمان ابن عفان ﷺ على أيدي الخارجين المارقين الشذاذ الذين جاءوا من الآفاق ومن أمصار مختلفة وقبائل متباينة لا سابقة لهم، ولا أثر خير في الدين، فبعد أن قتلوه ﷺ ظلماً وزوراً وعدواناً، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين[3]، قام كل من بقي بالمدينة من أصحاب رسول الله بمبايعة علي ﷺ بالخلافة، وذلك لأنه لم يكن أحد أفضل منه على الإطلاق في ذلك الوقت، فلم يدع الإمامه لنفسه أحد بعد عثمان ولم يكن أبو السبطين ﷺ حريصاً عليها، ولذلك لم يقبلها، إلا بعد إلحاح شديد ممن بقي من الصحابة بالمدينة وخوفاً من ازدياد الفتن وانتشارها، ومع ذلك لم يسلم من نقد بعض الجهال إثر تلك الفتن كموقعة الجمل وصفين التي أوقد نارها وأنشبها الحاقدون على الإسلام، كابن سبأ وأتباعه الذين استخفهم فأطاعوه لفسقهم ولزيغ قلوبهم عن الحق والهدى.

وقد روى الكيفية التي تم بها اختيار علي ﷺ للخلافة بعض أهل العلم[4]، فقد روى أبو بكر الخلال بإسناده إلى محمد ابن الحنفية قال: كنت مع علي رَحِمَهُ اللَّهُ وعثمان محصر قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة قال: فقام علي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفاً عليه، فقال: خل لا أم لك قال: فأتى عليٌّ الدار وقد قتل الرجل رَحِمَهُ اللَّهُ فأتى داره فدخلها وأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه فقالوا: إن هذا قد قتل، ولا بد للناس من خليفة ولا نعلم أحداً أحق بها منك فقال لهم علي: لا تريدوني فإني لكم وزير خير مني لكم أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحداً أحق بها منك، قال: فإن أبيتم علي فإن بيعتي لا تكون سراً، ولكن أخرج إلى المسجد، فبايعه الناس[5].

(1) سير أعلام النبلاء (1/ 86).
(2) دراسة في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص: 278.
(3) الطبقات لابن سعد (3/ 31).
(4) عقيدة أهل السنة في الصحابة الكرام (2/ 677).
(5) كتاب السنة لأبي بكر الخلاّل، ص: 415.

5 - طريقة انعقاد بيعة الحسن بن علي ﷺ :

كانت بيعة الحسن بن علي ﷺ في شهر رمضان من سنة 40هـ وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، وقد اختار الناس الحسن بعد والده ولم يعين أمير المؤمنين أحداً من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت علياً يقول: لتخضبن هذه من هذا[1]، فما ينتظر بي الأشقى[2] قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير عترته[3]، قال: إذن تالله تقتلون بي غير قاتلي، قالوا: فاستخلف علينا قال: لا، ولكن أترككم إلى ماترككم إليه رسول الله ﷺ قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ قال: أقول: اللّهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم وفي رواية: أقول اللّهم استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم.

وبعد مقتل علي صلى عليه الحسن بن علي، وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله ﷻ وسنة نبيه، وقتال المُحلِّين، فقال له الحسن ﷺ : على كتاب الله وسنة نبيه فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط، فبايعه وسكت وبايعه الناس[4]. وقد اشترط الحسن بن علي على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[5]، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم قالوا: ما هو؟ قال تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت[6]، وفي رواية ابن سعد: إن الحسن بن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي على بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه ورضوا بما رضي به[7].

6 - طريقة انعقاد بيعة معاوية ﷺ :

تمت بيعة معاوية بتنازل الحسن بن علي ﷺ عن الخلافة وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة وسمي هذا العام بعام الجماعة[8]، وقد بايع

(1) أي لتخضبن لحيته من دم رأسه.
(2) مجمع الزوائد (9/ 921) مسند أحمد (2/ 325) حسن لغيره.
(3) نبير عُترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب(4/ 5)(4/ 538).
(4) تاريخ الطبري (6/ 73).
(5) تاريخ الطبري (2/ 77).
(6) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمي (1/ 286، 287).
(7) المصدر نفسه (1/ 316، 317).
(8) سير أعلام النبلاء (3/ 137) تاريخ خليفة 203.

معاوية ﷺ كل الصحابة الأحياء وأجمعت الأمة عليه وعدوا خلافته شرعية ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلي أمر المسلمين ويقوم به خير قيام.

7 - المآخذ على فكرة ولاية العهد في عهد معاوية:

صحيح أن النظام الإسلامي للحكم لم ينص على طريقة معينة لاختيار ولي الأمر، ولكنه وضع الأساس التي لا تجوز الحيدة عنه، إلا في حالات الضرورة والاضطرار، وهو الشورى، وليس للشورى أسلوب خاص، وطريقة واحدة، لا تتحقق إلا بها، ولكن تتحقق بأساليب شتى كما مرّ معنا في اختيار الأمة للخلفاء الراشدين، ولئن قصد معاوية ﷺ بإحداث ولاية العهد في نظام الحكم الإسلامي جمع كلمة المسلمين، وحقن دمائهم، فهو إن شاء الله تعالى مأجور على أنه كان قادراً على أن يجعل العهد بعده لغير ولده من كبار الصحابة الموجودين في تلك الفترة، وكان فيهم كفاءات لو أسند إليهم الأمر، فقد كان الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر وغيرهم موجودين في هذا الوقت، ولكن معاوية ﷺ عدل عن هؤلاء وقصد لولده ليكون خليفة بعده، وبذلك حصل التغير الحقيقي في نظام الحكم الإسلامي، فليس التغيير في إيجاد نظام ولاية العهد... ولكن التغيير في أن يكون ولي العهد ولد الخليفة أو أحد أقاربه، حتى أصبحت الحكومة ملكية بعد أن كانت خلافة راشدة[1]، وإذا كنا مأمورين باتباع سنة الرسول وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، فإن التزام نظام الوراثة ليس من سنة النبي ولا من سنة خلفائه الراشدين.

كما أن ترشيح يزيد لم يكن موفقاً لأسباب منها: إن المجتمع الإسلامي يومئذ كان فيه من هو أحق وأولى بالخلافة من يزيد في سابقته وعلمه وعمله ومكانه وصحبته، كعبد الله بن عمر وابن عباس وغيرهم، فأين الثرى من الثريا[2]؟ ومنها: مبدأ توريث الحكم من الأب لابنه.

وعلى كل تقدير فهذا لا يقدح فيما عليه أهل السنة، فإنهم لا ينزهون معاوية ولا من هو أفضل منه من الذنوب، فضلاً عن تنزيههم عن الخطأ في الاجتهاد، بل يقولون إن للذنوب أسباب تدفع عقوبتها من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وغير ذلك وهذا أمر يعم الصحابة وغيرهم[3]، ومعاوية ﷺ من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببريء من الهنات، والله يعفو عنه[4]، والذي يجب أن نعتقده في معاوية أن قلوبنا لا تنضوي على غل لأحد من أصحاب محمد ﷺ بل نقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ

(1) الأمويون بين الشرق والغرب للوكيل (1/ 180).
(2) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص: 250.
(3) منهاج السنة (4/ 385).
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 156).

بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10] ونقول بأن معاوية اجتهد للأمة خوفاً عليها من الانقسام والفتن، ولا يمكن أن يحمل تبعات كل أخطاء الملوك والأمراء الذين جاؤوا من بعده، كما قرره عبد القادر عوده رَحِمَهُ اللَّهُ: حيث يقول: وأقام معاوية أمر الأمة الإسلامية على المحجات والظلم وإهدار الحقوق، وقضى على الشورى وعطل قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] وحوّل الحكم العادل النظيف إلى حكم قذر قائم على الأهواء والشهوات، ووجه الناس إلى النفاق والذلة والصغار، ولا شك فيه أن كل من جاؤوا بعده إلى عصرنا هذا قد عمل بسنته وتثبتوا ببدعته حاشا عمر بن عبد العزيز، فعلى معاوية وقد استن هذه السنة السيئة إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة[1].

وإذا كان معاوية - أو الخلفاء الأمويون - قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ثالث خلفاء الأمويين قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة.. وإنه لما يستوجبه الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط، ولم تستطع الأمة التي أعطيت حقها في اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق في عصر الراشدين، وبرز بوضوح دور العصبية الإقليمية والقبلية وحسم في النهاية الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموي، واستطاعت الشام أن تحقق الحسم التاريخي بعمق الالتحام بين بنائها القبلي والوجود الأموي بها[2]، وسيأتي بإذن الله التفصيل عن حديثنا عن معاوية الثاني.

والحقيقة أن بيعة يزيد قد قبلها الكثير حتى الصحابة رضوان الله عليهم، فقد بايعه ستون من أصحاب محمد ﷺ فيهم ابن عمر[3] خوفاً من الفتنة وحرصاً على وحدة الصف، فقد توفي عبد الرحمٰن بن أبي بكر بعيد خروج معاوية من المدينة ولم يبق من المعارضين إلا ثلاثة هم: ابن عمر، وابن الزبير، والحسين بن علي، أما ابن عمر فلما رأى الناس مجتمعة على يزيد بايعه وأرسل بيعته بعد وفاة معاوية رضي الله عنه وقال: إن كان خيراً رضينا به وإن كان بلاءً صبرنا[4]، وانحصرت المعارضة في شخص ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهما، وقد حاول بعض الناس أن يلفقوا على معاوية رضي الله عنه تحسره من بيعة يزيد، فنقلوا عنه أنه قال: لولا هواي في يزيد

(1) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص: 159.
(2) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 293-294، 195.
(3) القيد الشريد، ورقة 17 نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 153.
(4) مصنف ابن أبي شيبة (11/ 100) بسند صحيح.

لأبصرت رشدي[1]. والسند من طريق الواقدي وهو متروك[2]، ونسبوا إليه أيضاً أنه قال ليزيد: ما ألقى الله بشيء أعظم من نفسي من استخلافك[3]. والسند من الطريق الهيثم بن عدي؛ وهو كذاب[4]، ولقد اعتمد محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الرواية، وتحامل على معاوية تحاملاً قاسياً[5]، ولقد تورط الكثير من الباحثين في الروايات الضعيفة والموضوعة فيما يتعلق بتاريخ صدر الإسلام، وبنوا عليها تصورات وأفكاراً وأحكاماً تحتاج إلى إعادة نظر من جديد.

ومع ما وقع من انحراف في تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي، الذي تتمثل فيه روح الإسلام كاملة وهو الخلافة واستبدال الملك العضوض به[6]، إلا أن الطابع الإسلامي هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرفات الحكام، فالصلاة تؤدي في أوقاتها، والزكاة تحصَّل من أربابها والصوم فريضة لا يُعارض في أدائها، وإقامة الحدود دون هوادة لم يقف شيء دون تنفيذها، والجهاد في سبيل الله فريضة ماضية بين رجالها، وبالجملة كانت تعاليم الإسلام مطبقة بحذافيرها[7].

سابعاً: الأيام الأخيرة في حياة معاوية:

1 - وصية معاوية ﷺ ليزيد:

لما حضر معاوية الموت وذلك سنة 60هـ وكان يزيد غائباً، دعا بالضحاك بن قيس الفهري - وكان صاحب شرطته - ومسلم بن عقبة المري، فأوصى إليهما فقال: بلِّغا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإن أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمساً قِبَلك، وأما

(1) أنساب الأشراف (4/ 28).
(2) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 152.
(3) أنساب الأشراف (4/ 60).
(4) مواقف المعارضة، ص: 152.
(5) مواقف الصحابة في خلافة يزيد، ص: 152، الخلافة محمد رشيد، ص: 52.
(6) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 112.
(7) الأمويون بين المشرق والمغرب (1/ 94، 95).

الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسّة، وحقاً عظيماً، وقرابة محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ، فإذا شخص لك فالبد له، إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت[1].

تظهر في هذه الوصية كفاية معاوية ودهائه السياسي من خلال تشخيصه لأهمية الأمصار ومدى تأثيرها المستقبلي على أوضاع الدولة الأموية، فذكر في وصيته ثلاث أقاليم فقط؛ هي الحجاز والعراق والشام، ذلك أن الأوضاع السياسية خارج دائرة هذه الأقاليم، لم تكن تثير أي هموم جدية لدى معاوية[2].

أ - **الحجاز**: فالبنسبة للحجاز يوصي معاوية ابنه قائلاً: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب[3]، ويأتي اهتمام معاوية بالحجاز فضلاً عن كونه محل أهله وعشيرته، فهو من الناحية السياسية كان ولوقت قريب مركز الثقل السياسي للدولة الإسلامية «مقر الخلافة» ومن الناحية الدينية لم يزل يحتل مركز الصدارة لاحتضانه جل ما تبقى من صحابة الرسول ﷺ، وبإمكانه تقويض حكم بني أمية فيما لو اجتمعت كلمته وأتيحت الفرصة له، وهو بعد ذلك لايزال المكان الحقيقي للبيعة[4]، والأهم من ذلك كله فإنه يضم عدداً من الشخصيات المعارضة للحكم الأموي، أمثال الحسين بن علي ﷺ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس رضي الله عنهم جميعاً، كما سنرى ذلك في الفقرات اللاحقة من الوصية، ولذلك نرى معاوية يحث يزيد على استخدام مختلف الوسائل لاستقطاب الحجاز بما في ذلك إغداق الأموال[5]، ولهذه الأسباب أيضاً وضع معاوية السلطة في هذا الإقليم تحت مراقبته المباشرة، حيث قام بتنفيذ سياسته في البيت الأموي، وقام بتشجيع مختلف النشاطات غير السياسية المناهضة له فيه[6]، واهتم بأهله اهتماماً خاصاً.

ب - **العراق**: أما الأقليم الثاني الذي يثير اهتمام معاوية فهو العراق، لذا يوصي ولي عهده أن يعامل أهل العراق معاملة خاصة فيقول: انظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل

(1) تاريخ الطبري (6/ 241).
(2) الوصية السياسية في العصر العباسي، حقي إسماعيل، ص: 46.
(3) تاريخ الطبري (6/ 241).
(4) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 46.
(5) المصدر نفسه، ص: 46.
(6) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 46.

يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إليّ من أن يشهر عليك مائة ألف سيف[1]، ومن الجدير بالذكر أن شكاية أهل العراق من ولاتهم كان منذ عهد عمر بن الخطاب ﷺ.

جـ - الشام: أما الإقليم الثالث هو الشام، فإن وصية معاوية به تأتي من باب رد الجميل لأهل الشام لدورهم الكبير في مساندته بالوصول إلى الحكم، وتأييدهم المستمر لسياسته، لذا يوصي ابنه أن يجعلهم محل ثقته وعنايته، وأن يدَّخرهم للمهمات الجسام في قوله: وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم[2]. وتظهر الفقرة الأخيرة من هذا النص بعد نظر معاوية السياسي، فهو يسدي مخاوفه من اختلاط أهل الشام[3] ببقية سكان الأقاليم الأخرى، فتتبدل أخلاقهم نتيجة مكوثهم مدة طويلة، ولربما استطاع المعارضون للحكم الأموي التأثير على جند الشام، على الرغم من التقاء مصالحهم مع مصالح البيت الأموي، فتسقط من يد الخلافة الأموية الورقة الرابحة التي طالما استخدمها معاوية وقطف ثمارها، ولهذا يوصي معاوية ابنه بأن يسرع في إعادة جند الشام إلى بلادهم حال انتهاء مهمتهم[4].

ومن أهم ما في وصية معاوية خطته التي رسمها لولي عهده في مواجهة الأحداث المقبلة، وأوكل إليه تنفيذها بعد أن عجز هو عن إقناع نفر من قريش بالبيعة ليزيد على الرغم من أن الروايات تذكر أن معاوية ذهب إلى الحجاز لهذا الغرض، والتقى بالشخصيات التي رفضت البيعة ليزيد كلاً على انفراد في محاولة للحصول منهم على وعود بالبيعة[5]، إلا أن هذه الجهود لم تثمر في تذليل المصاعب قبل ظهورها[6]، والوصية تظهر أن الحجاز، وتحديداً المدينة، هي أكثر البلدان معارضة لحكم بني أمية، ولهذا يوصي معاوية ابنه أن يكون حذراً ودقيقاً في تعامله معها، وأن يكون حازماً شديداً حين يتطلب الأمر ذلك، ومرناً ليناً مع من لا يشكلون خطراً حقيقاً عليه، لما للحجاز من أهمية بالغة في تقرير وتثبيت الحكم[7].

وكان معاوية ﷺ مصيباً في رأيه بعبد الله بن عمر من أنه رجل قد وقذه الدين، ولا خطر على يزيد منه، وذلك أن الوليد بن عتبة حين طلبه للبيعة قال: إذا بايعت الناس بايعت، فتركوه

(1) تاريخ الطبري (6/ 241).
(2) المصدر نفسه (6/ 241).
(3) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 4.
(4) المصدر نفسه، ص: 48.
(5) المصدر نفسه، ص: 48.
(6) المصدر نفسه، ص: 48.
(7) المصدر نفسه، ص: 49.

لثقتهم بزهادته في الأمر وشغله بالعبادة[1]، وكان مصيباً في حدسه من أن أهل العراق لن يتركوا الحسين بن علي ﷺ حتى يخرجوه، ويبدو أنه كان متأكداً من وقوع الاصطدام بينهما، لذلك طلب من يزيد أن يعفوَ عنه إذا تمكن منه.

أما الخطر الحقيقي والذي يتطلب الحزم والشدة فإنه يأتي من عبد الله بن الزبير الذي كان يتمتع على ما يبدو من تأييد واسع النطاق بين معظم المعارضين للحكم الأموي، ولأنه كان رجل سياسة وحرب من الطراز الأول، وعلى الجملة فإن وصية معاوية تعكس سياسته ودهاءه في تصريف الأمور، فنراه من خلال الوصية يتعامل مع الأحداث التي تتطلب الشدة حزماً، وفيما عدا ذلك فهو يستخدم خبرته وتجربته السياسية الطويلة في مواجهة الأحداث، وقد وصف معاوية نفسه مشيراً إلى هذه السياسة بقوله: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها[2].

وكان على الدوام يوصي يزيد بهذه السياسة فيقول له: عليك بالحلم والاحتمال حتى تمكنك الفرصة، فإذا أمكنك فعليك بالصفح فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور[3].

وفي هذه الوصية يلخص معاوية ﷺ منهجه وخبرته في السياسة والإدارة لابنه يزيد في كلمات قليلة جامعة تنم عما يتمتع به هذا الصحابي الكريم من حنكة سياسية وبراعة إدارية[4].

2 - آخر خطبة لمعاوية ﷺ واشتداد مرضه ووفاته:

كانت آخر خطبة خطبها معاوية ﷺ قوله: أيُّها الناس إني من زرع وقد استحصد، وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدي إلا من هو شر مني، كما كان من وليكم قبلي خيراً مني، ويا يزيد إذا وفى أجلي فوَلِّ غسلي رجلاً لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان، فليُنعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم أعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ، وقُراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفي وفمي وأُذُنيَّ وعيْنيَّ، واجعل الثوب يلي جلدي دون أكفاني، ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جريدتي، ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين[5].

---

(1) أنساب الأشراف (4/ 14).

(2) نهاية الإرب (6/ 44) العقد الفريد (1/ 25).

(3) نهاية الإرب (1/ 256).

(4) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 95.

(5) البداية والنهاية (11/ 454).

ولما احتضر معاوية جعل يقول:

لعمري لقد عُمِّرتُ في الدهر بُرهةً ... ودانتْ لي الدُّنيا بوقعِ البواتِرِ
وأعطيت حُمْرَ المالِ والحكمِ والنّهى ... وسِلْمَ قماقيم[1] الملوكِ الجبابرِ
فأضحى الذي قد كان ممَّا يَسُرُّني ... كحلمٍ مضى في المزمناتِ الغوابرِ
فيا ليتني لم أُعنَ في الملكِ ساعةً ... ولم أُغْنَ في لذاتِ عيشٍ نواضرِ
وكنت كذي طِمرين عاش ببُلْغةٍ ... من العيشِ حتى زارَ ضيقَ المقابرِ[2]

وقد أوصى معاوية بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد أن يُطيَّب له، لأن عمر بن الخطاب قاسم عمّاله[3]. وذكروا أنه في آخر عمره اشتد به البَرْدُ فكان إذا لبس أو تغطَّى بشيء ثقيل يَغُمُّه، فاتُّخذ له ثوب من حواصل الطير[4]، ثم ثقل عليه بعد ذلك، فقال: تبًّا لك من دار ملكتك أربعين سنة، عشرين أميراً، وعشرين خليفة، ثم هذا حالي فيك، ومصيري منك، تباً للدنيا ومُحبِّيها[5].

ولما اشتد المرض وتحدث الناس أنه الموت قال لأهله: احشوا عيْنيّ إثمداً، وأوسعوا رأسي دُهناً. ففعلوا وبرّقوا[6] وجهه بالدهن، ثم مُهِّد له فجلس وقال: أسندوني. ثم قال: ائذنوا للناس فليُسلموا عليَّ قياماً ولا يحبس أحد. فجعل الرجل يدخل فيُسلم قائماً فيراه متكحِّلاً مُتدهِّناً، فيقول متقوِّل الناس: هو لمّا به[7]، وهو أصح الناس، فلما خرَجوا من عنده[8] تمثل معاوية بقول أبي ذؤيب الهذلي الشاعر:

وتجلُّدي للشامتين أُرِيهِمُ ... أنِّي لريبِ الدَّهْرِ لا أتضعضعُ
وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

وكان به النقابة[9]، فمات من يومه ذلك[10]، وكان يقول لما نزل به الموت: يا ليتني

(1) القماقم والقُماقِم من الرجال: السيد الكثير الخير الواسع الفضل، وجمع قياساً على قماقيم.
(2) البداية والنهاية (11/ 455).
(3) البداية والنهاية (11/ 455).
(4) الحواصل: جمع حوصلة، وحوصلة الطائر بمنزلة المعدة للإنسان.
(5) البداية والنهاية (11/ 455).
(6) برّقوا: لمّعوا.
(7) لما به: اقترب أجله.
(8) البداية والنهاية (11/ 456).
(9) النقابة: قرحة تخرج في الجنب وتهجم الجوف.
(10) البداية والنهاية (11/ 456).

كنت رجلاً من قريش بذي طوى ولم أَلِ من هذا الأمر شيئاً[1]، ومن الشعر الذي تمثل به أيضاً قول الشاعر:

إن تناقشْ يكنْ نقاشُكَ يا ربِّ عذاباً لا طوقَ لي بالعذاب
أو تجاوزْ تجاوزَ العفوِ فاصفحْ عن مسيءٍ ذنوبُه كالتُّرابِ[2]

وقال ﷺ وهو يُقَلبّ في مرضه، وقد صار كأنه سعفة محترقة: أي شيخ تقلّبون إن نجاه الله من النار غداً[3]؟، وقال الحسن البصري: دُخل على معاوية وهو بالموت، فبكى، فقيل: ما يبكيك؟

قال: ما أبكي على الموت أن حل بي، ولا على دنيا أخلفها ولكن هما قبضتان: قبضة في الجنة، وقبضة في النار، فلا أدري في أي القبضتين أنا[4]؟.

وأغمي على معاوية ﷺ في سكرات الموت ثم أفاق فقال لأهله: اتّقوا الله، فإن الله يَقي من اتّقاه ولا يَقي من لا يَتّقي[5]. وجعل معاوية ﷺ لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقلّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللّهم إنك قلت في كتابك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48] اللّهم اجعلني ممَّن تشاء أن تغفر له[6]. ومن دعائه في ذلك اليوم: اللّهم أقل العثرة، واعف عن الزلة وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرْجُ غيرك، فإنك واسع المغفرة ليس لذي خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك، ثم مات[7]. وجاء في رواية: اللّهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي[8]. رحم الله معاوية ﷺ.

3 - سنة وفاة معاوية ومن صلى عليه:

قال الطبري: في هذه السنة هلك معاوية بن أبي سفيان بدمشق، فاختلف في وقت وفاته بعد إجماع جميعهم على أن هلاكه كان في سنة ستين من الهجرة وفي شهر رجب[9]، وقال ابن حجر: مات معاوية في رجب سنة ستين على الصحيح[10].

وصلى على معاوية الضحاك بن قيس الفهري، وكان يزيد غائباً حين مات معاوية[11]، فقد خرج الضحاك حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن

(1) البداية والنهاية (11/ 456).
(2) المصدر نفسه (11/ 456).
(3) البداية والنهاية (11/ 457).
(4) كتاب المحتضرين، ص: 199، سكب العبرات (1/ 190).
(5) تاريخ الطبري (6/ 245).
(6) البداية والنهاية (11/ 457).
(7) المصدر نفسه (11/ 457).
(8) تاريخ ابن خلدون (3/ 21).
(9) تاريخ الطبري (6/ 241).
(10) الإصابة (6/ 155).
(11) تاريخ الطبري (6/ 245).

معاوية كان عود العرب[1]، وحدّ العرب[2]، قطع الله ﷻ به الفتنة وملّكهُ على العباد، وفتح به البلاد. ألا إنه قد مات، فهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومُخَلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى[3].

وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية وقد اختلف المؤرخون هل حاضر يزيد وفاة أبيه أم لا؟ والصحيح أن يزيد لم يدرك والده حياً وإنما جاء بعد موته[4]. ولما وصل يزيد الخبر قال:

جاء البريدُ بقرطاسٍ يخبُّ بهِ ... فأوجسَ القلبُ من قرطاسِهِ فَزَعَا
قلنا: لك الويلُ ماذا في كتابِكُمُ؟ ... قالوا: الخليفةُ أمسى مثبتاً وَجِعَا
فمادتِ الأرضُ أو كادت تميدُ بنا ... كأنَّ أغبرَ من أركانِهَا انقطعا
من لا تزال نفسُه توفي على شرفٍ ... توشكُ مقاليدُ تلك النفسِ أن تَقَعَا
لما انتهينا وبابُ الدارِ منصفِقٌ ... وصوت رملة[5] رِيعَ القلبُ فانصَدَعا[6]

4 - عمر معاوية ﷺ عند وفاته:

على القول الراجح: توفي معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة[7]، بدليل قول ابن حجر: إن مولده كان قبل البعثة بخمس سنوات على الأشهر[8]، وكما هو معروف فإن بعثة الرسول ﷺ قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، وبذلك يكون مولد معاوية قبل الهجرة بثمان عشرة سنة، ولما كانت وفاته سنة ستين، فهذا يعني أن عمره عند وفاته كان ثمان وسبعين سنة[9].

5 - مدة خلافته:

تنازل الحسن بن علي لمعاوية بالتخيلة وتمت بيعته في شهر ربيع الأول من عام 41هـ ومات بدمشق سنة 60هـ يوم الخميس لثمان بقين من رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً[10].

---

(1) العود: الرجل المسن، لسان العرب (3/ 321).
(2) حد كل شيء: منتهاه.
(3) أي عند صلاة الظهر كما ورد في بقية المصادر.
(4) تاريخ الطبري (6/ 246).
(5) رملة بنت معاوية بن أبي سفيان، زوجة عمرو بن عثمان بن عفان.
(6) تاريخ الطبري (6/ 246).
(7) تاريخ الطبري (6/ 243).
(8) الإصابة (6/ 151).
(9) تاريخ الطبري (6/ 243).
(10) المصدر نفسه (6/ 243).

6 - ما قيل فيه من رثاء:

قال أبو الورد العنبري يرثي معاوية ﷺ:

ألا أنعي معاويةَ بن حربٍ ... نعاهُ الحلُّ للشهرِ الحرامِ
نعاه الناعجاتُ[1] بكل فجٍّ ... خواضعُ في الأزمَّةِ كالسِّهامِ
فهاتيك النجوم وهنَّ خُرْسٌ ... ينخن على معاويةَ الثآمِ

وقال أيمن بن خزيم يرثيه أيضاً:

رَمَى الحدثان نسوةُ آل حربٍ ... بمقدارٍ سمدنَ له سُمودا
فرَدَّ شعورهنَّ السُّود بيضاً ... ورد وجوههن البيض سُودا
فإنك لو شهدت بكاءَ هندٍ ... ورملةَ إذ يُصَفِّقْنَ الخُدودا
بكيتَ بكاءَ مُعْوِلةٍ قريحٍ[2] ... أصابَ الدهرُ واحدَها الفريدا[3]

7 - ما قاله ابن عباس في موت معاوية ﷺ:

قال عامر بن مسعود الجهني: مرّ بنا نعيُ معاوية ونحن في المسجد، فأتينا ابن عباس، فوجدناه جالساً وقد وضع خوانه[4]، وعنده نفر، ولم يوضع الطعام، فقلنا يابن عباس: أما علمت بهذا الخبر؟ فقال: وما هو؟ قلنا: هلك معاوية. فقال: ارفع خوانك ياغلام، وسكت ساعة هاجماً[5]، ثم قال: جبل تزعزع ثم زال بجمعه في البحر[6]. قال القاضي أبو يعلى بعدما ذكر القصة: اللّهم أنت أوسع لمعاوية كنفاً، وأحسن من تجاوز عنه وعنّا[7].

8 - نقش خاتمه:

كان نقش خاتمه: لكل عمل ثواب[8]، وقيل: لا قوة إلا بالله[9].

9 - التبرك بآثار الرسول ﷺ:

عن عبد الأعلى بن ميمون، عن أبيه: أن معاوية قال في مرضه الذي مات فيه: إن رسول

(1) الناعجات: جمع ناعجة وهي المرأة حسنة اللون.
(2) المعولة: الرافعة صوتها بالبكاء، القريح: الجريح.
(3) البداية والنهاية (11/ 462).
(4) الخوان: ما يوضع عليه الطعام عند الأكل.
(5) هاجماً: الهاجم: الساكن المطرق.
(6) تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، ص: 113.
(7) المصدر نفسه، ص: 113.
(8) تاريخ القضاعي، ص: 326.
(9) المصدر نفسه، ص: 326.

الله ﷺ كساني قميصاً فرفعته، وقلَّم أظفاره يوماً، فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة، فإذا مت فألبسوني ذلك القميص، وقطعّوا تلك القلامة، واسحقوها وذُرُّوها في عيني وفي فيّ[1]، فعسى الله أن يرحمني ببركتها[2].

ويعتبر تبرك الصحابة رضوان الله عليهم بآثار النبي ﷺ الحسية المنفصلة عنه، من أنواع التبرك المشروع حيث فعله الصحابة رضوان الله عليهم أثناء حياته ﷺ وبعد مماته[3] كما فعله السلف الصالح رحمهم الله تعالى، ومن الأدلة على ذلك:

أ - عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب علي من وضوئه فعقلت[4].

ب - عن عثمان بن عبد الله بن وهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء.. فيها شعر من شعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة[5]. قال ابن حجر: بعث إليها مخضبة - وهو من جملة الآنية - والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل بعده استشفاءً بها فتحصل له[6].

جـ - وعن أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت في جبة رسول الله ﷺ: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت فلما قبضت، قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها[7].

وقد فرّع العلماء على مسألة التبرك بآثار الرسول ﷺ مسألة التبرك بفضلات الصالحين وآثارهم، ففي حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلاوقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده... وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه[8]، وقد علق الشاطبي على هذا الحديث، وأحاديث أخرى تماثله، فقال: فالظاهر في مثل هذا النَّوع أن يكون مشروعاً في حق من ثبتت ولايته، واتِّباعه

(1) فيّ: الفم.
(2) تاريخ الطبري (6/ 245).
(3) مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 93.
(4) صحيح البخاري مع فتح الباري (1/ 360).
(5) صحيح البخاري مع فتح الباري (10/ 364).
(6) فتح الباري (10/ 365).
(7) صحيح مسلم بشرح النووي (14/ 43).
(8) زاد المعاد (3/ 290) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص: 488.

لسنة رسول الله ﷺ، وأن يتبرك بفضل وضوئه، ويُتدلَّك بنخامته، ويُستشفى بآثاره كلِّها، إلا أنَّه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله، وهو أن الصحابة ﷺ بعد موته ﷺ لم يقع من أحد منهم في شيء من ذلك بالنِّسبة إلى مَنْ خَلَفه، إذ لم يترك النبي ﷺ بعد موته أفضل من أبي بكر الصديق ﷺ، فهو خليفته، ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر ﷺ وهو كان أفضل الأمة بعده، ثمّ كذلك عثمان بن عفان، ثمّ علي، ثمّ سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمَّة، ثمَّ لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبرِّكاً تبرك به أحد تلك الوجوه أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال، والأقوال، والسِّير التي اتَّبعوا فيها النبي ﷺ، فهو إذا إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[1].

(1) غزوة الحديبية للحكمي، ص: 305.